

روايات تاريخ الجزائر

الملك ماسينيسا



ملك نوميديا

كفاح جرار





رواية

روايات تاريخ الجزائر

كفاح جرار

ماسينيسا

ملك نوميديا

الطبعة الأولى

منشورات الأنيس

الجزائر

منشورات الأنيس

للنشر والتوزيع

تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو

دالي ابراهيم – الجزائر العاصمة

هاتف: 58 02 29 023

فاكس: 57 02 29 023

المحمول: 84 08 57 0661

elaniseditions@hotmail.fr

الإهداء

إلى جيل يحب التاريخ ويكره قراءته الجامدة.

إلى فتية سيكونون يوماً صناع تاريخ

إلى ابنتي فيوزة التي منحتني سعادة لا توصف.

كفاح جرار

إن القدر لم يقدم قط للمحاربين مثل ما قدمه لهم في معركة زاما فنتيجة تلك المعركة لم تقع أفريقيا وأوروبا في قبضة الروماني المنتصر وحسب، بل كل أقطار العالم المعروفة في ذلك الحين.

المؤرخ اليوناني بوليب

مقدمة

يختلف الناس في طباعهم وأهوائهم ورغباتهم، ويختلفون أقل في توجهاتهم وأفكارهم، لأنهم ساعتها يبحثون عن التكتل والتجمع، فيسعون لإلغاء تميزهم الذاتي لحساب تمايزهم الجماعي، ويصبح اختلافهم أقل بكثير عندما يتعلق الأمر بالتاريخ، الذي هو سجل حياتهم الجماعية، كقوم وعشيرة ووطن. ومن هنا تنبع المتعة في دراسة التاريخ والبحث فيه، إنها السيرة الحية لأحداث اتفقوا عليها، ساهموا جميعا في صناعتها وبلورتها.

ولكن

ليس كل البحث التاريخي له متعته، وليست كل القراءات التاريخية شيقة وتخلب اللب، ما يعني أننا بحاجة إلى أسلوب أكثر إغراء وجدوى لتقديم الأحداث التاريخية بشكل مسل ومرض فيه من المتعة والفائدة، ما يغني عن قراءة التاريخ السردي المليء بالتواريخ والأحداث والأسباب والمسببات والنتائج، فهذه قضايا قد تهم الباحث والدارس المتخصص، لكن

القارئ العادي ينفر من هذه القراءات المملة ويتجه نحو المتعة والإثارة، لذلك وجدنا من المفيد والضروري تدعيم المكتبة الأدبية والتاريخية بسلسلة قصصية تتناول أهم الشخصيات التي تركت بصماتها واضحة على مسيرتنا الوطنية التاريخية، ومن هذا الباب والمنطلق كانت سلسلتنا هذه "روايات تاريخ الجزائر" التي أردنا منها تحقيق وتعميم متعة القراءة وفائدة المطالعة، بقراءة تاريخية جديدة، تتمثل في تقديم الحدث التاريخي في قالب قصصي ممتع وشيق، وهي مقسمة إلى أربعة أجزاء، بدأناها بالتاريخ القديم، ثم التاريخ الإسلامي، فالتاريخ الحديث وبعده التاريخ المعاصر.

وما بين أيدينا اليوم، هو بعض تأريخ قصصي للجزء الخاص بتاريخنا الأمازيغي، وقد رأينا أن تكون بدايته سيرة الملك شوشناق، والملكين صيفاقس وماسينيسا، يوغرطة وتاكفاريناس ولغاية الملكة الكاهنة وتنهينان.

ماسينيسا أيها الرجل الضعيف الهزيل، هل ما زلت تؤمن بقوة الحب وجبروته، أما زلت على اعتقادك بأن الحب قد يحيي ويقتل؟.

إيه كم يمر الزمن بسرعة وغفلة، من البشر من يصنع الحب منهم أناسا سعداء يعيشون ويموتون وهم يبتسمون، ومنهم الذين يحولهم إلى مجانين وقتلة، أما أنا ماسين بن غايا من آل أيليماس فقد صنعت من الحب والغدر والخديعة عظمة ومجدا، قلة من الرجال من يستطيعون ذلك.

ثم يهز رأسه وهو يهمس لنفسه: لقد كنت الاستثناء بين الجميع، ولكن ما نفع كل تلك الأمجاد والحروب ومعارك العشق وأوهام الغيب، بائس هو من يعتقد أن بإمكانه صناعة الخلود لمجرد أن ينتصر في حرب، أو يحتل بلادا ويقهر أكبر عدد من الرجال.

تنتابه نوبة سعال حادة ، فيمد يدا مرتعشة نحو كأس ذهبية ويشرب منها ما يخفف عنه الكحة، ويأتي أحد الخدم على صوت سعاله فيصرفه بحركة من يده، إنه يحتاج أن يبقى مع نفسه، وبعد فترة هدوء يعود إلى ذكرياته فيقول بصوت لم يسمعه غيره: اعلم أيها الإنسان الحقير أنك لن تنال المجد والخلود إلا بالعلم

والمعرفة، ليتنا صنعنا السلام وزرعنا مزيدا من أشجار الزيتون. ألم يكن ذلك كافيا لكي نعشق تربتنا أكثر، ونحترم وجودنا واستقلالنا وذاتيتنا.

وبينما هو غارق في هواجسه وذكرياته، يقطع عليه وحدته طفل لم يتجاوز العاشرة من عمره، ويرتمي في حضن الملك العجوز، فيتعانقا بمحبة، ثم يهمس في أذن صغيره: أنت الوحيد الذي يشبهني بين أبنائي جميعا، ولكني أبدا لا أتمنى لك حياة مثل حياة جدك.

أمسك بالصغير من كتفيه وهو ينظر مباشرة في عينيه، ثم هزه هزة خفيفة وقال: لا أريدك مثلي، بل أفضل بكثير، على الأقل لا تمت مثل جدك البائس، فقد عشت الحياة بطولها وعرضها وارتفاعها أيضا، يبتسم وهو يقول: وها أنت تراني على هذا الفراش الذي ملني ومللته، وقد ابتعد الجميع عني، وربما يتمون موتي لكي يتقاسموا السلطة والثروة. فيقول الصغير بعفوية وبراءة: إنهم يتمنون ذلك يا جدي، لقد سمعتهم أكثر من مرة يتحدثون عن ذلك.

- وأنت ماذا تتمنى؟.

- أنا أحبك يا جدي وأريدك دوما معي.

- إيه يا يوغورثن لابد من الفراق يا صغيري، ولكن تذكر دوما أن جدك لم يستسلم أبدا.

ذكريات مؤلمة

لم يستطع ماسينيسا أن ينسى أو حتى يتجاهل مصير حبيبته التي كانت بمثابة زوجته، وظل دائم التكرار لاسمها وكأن ذكراها نقشت في عقله قبل قلبه. وقد أثار ذلك حفيظة والدته الملكة التي حررها من يد خاطفها وسارق حبيبته الملك المهزوم صيفاقس، وقد آلمه كثيرا أن يسمع من والدته ثناء على ذلك الملك الغابر الغادر، فقالت تيفاني ساليس الملكة والدة الملك الشاب ماسين: الحق رغم أنه استخف بعقله فتجرأ على اختطافي، غير أني لم أر من هذا الرجل إلا كل احترام وتقدير، وأظنه من الشرفاء الأسياد، بل لم أسمعه مرة يشتمك أو يتعرض لك، ولكنها الحرب يا ولدي.

في الحرب تسقط الموانع والمحرمات إلا عند الأشراف، فإنهم يقاتلون بشرف ويهزمون أيضا بشرف، أليست هذه هي المروءة؟.

الملكة المازيلية تدافع عن قاطع طريق مازيسيلي خطفها، واستولى على مملكة زوجها، هل يعقل هذا؟ قال وقد تملكته الدهشة: هل ترينه من الأسياد يا أماه؟ بقي أن تقولي إننا قد ظلمناه.

قالت وقد تمعر وجهها بسبب تهكمه عليها: وإن تكن ملكا فلا تنس أنني أمك، ولم أقل في الرجل إلا ما يستحق أن يقال فيه، لقد تقاتلنا واقتتلنا من أجل غيرنا، من يمكنه إنكار ذلك؟.

- أخبرني ألست تقاتل بمروءة وشرف، ذلك ما أعنيه؟.

قال ماسينيسا بغضب: أية حرب هذه يا أماه، لقد تزوج خطيبتي ثم خطفك عنوة ثم تحالف مع أعدائنا في قرطاج، وهاأنت تسمينه شريفا وسيدا..إنه..إنه أقذر من خنزير بري عجوز.

قالت المرأة مخففة من ثورة ولدها: وهل تظن أن خطيبتك التي تتحدث عنها بهذه الحرقة والشوق كانت تريدك؟ لو أنها أرادتك فما من قوة على الأرض يمكنها التفريق بينكما، أما أنه خطفني فأنتم الملوك الشباب لا

ترون في هذا العالم إلا أنفسكم فقط، وهذه جريمة لم أكن لأغفرها له لولا أنه وقع بيد الرومان، وأنت أكثر من يعرف كراهتي هؤلاء القوم، وبعدها لن أحدثك عمن تحالف مع من.

كانت الملكة الأم التي مازالت تحتفظ بكثير من جمالها وأناقتها ورشاقتها، تغمز من قناة ولدها الذي هو بدوره غير تحالفاته وانقلب رأسا على عقب، فلا داعي بعدها لمعايرة صيفاقس وقد صنع مثله وأكثر.

لم تغب هذه الملاحظة عن ماسينيسا الذي عاد يقول بصوت متهدج، ولكن يا أماه لقد تزوج ذلك الأفاك فتاة متزوجة، لقد كانت لي وكنت لها، لقد كان الجميع يعرفون أني زوجها، قال جملته الأخيرة بحرقة بالغة، وكان محقا في ذلك، فقد كانت صوفونيسبا زوجته غير المعلنة، ومع ذلك فقد اختارت هي عن طواعية التضحية بحبها من أجل وطنها، وتلك حقيقة لم يكن ماسينيسا على علم بها. قالت الأم بتأفف: أعرف أنها لم تكن عذراء، ولكن منذ متى أصبحتم تقيمون وزنا لهذا الأمر.

سأل وكأنه مازال غرا جاهلا: ولكن لماذا باعتني..كم كان ثمن تخليها عني..يا رب الشمس كم أكره الغدر لو أني عرفت كم كنت أساوي عند هذه الفاسقة؟.

قالت الملكة الأم وقد انفطر كبدها شفقة على حرقة ولدها: كان عليك أن تعرف نوعية المرأة التي اخترتها، لقد كانت صفونيسبا من الحسناوات اللواتي لا مانع عندهن من تخريب كل شيء من أجل بلدها وهو الذي كان، لذلك ربما لست ناقمة عليها.

- يا لعنات الأرض والسماء لاحقي كل غادر ماكر، أتشفقين عليها يا أماه؟.

- للحق نعم، تستحق تلك الحسناء الشفقة، لأنها ببساطة لم تصنع ما صنعت من أجل نفسها، أليس كذلك؟ ربما نقدر لها فعلتها لو كان غيرنا عدوها.

فوجئ ماسينيسا بموقف والدته المتعاطف مع امرأة يراها مجرمة وأكثر من قاتلة، فقال بعصبية، وهو يرتعش كورقة وقعت بين غصنين صغيرين تعصف بها الريح: إنك تقتلينني مرتين يا أماه.

- ليهلك من يحاول أذيتك، لكن عندما تقع الخطوب الكبرى علينا أن نستعمل عقولنا أكثر، ثم هل تجهل أين صوفونيسبا، كنت أعتقد أنك تعرف أين هي الآن.

انتفض ماسينيسا الشاب لهذه الجملة الأخيرة وقال: وأين هي، أقسمت عليك بكل الأرباب.. أقسمت عليك بالشمس العظيمة هل تعرفين مكانها؟.

لم تكن تيفاني الملكة امرأة استثنائية خارقة، ولا هي متسلطة مولعة بالحكم، وإنما كانت ترى نفسها مسؤولة عن المملكة بعد موت زوجها وغياب ابنها في حروبه الانتقامية، وقد أكسبها ذلك خبرة ودراية، لم تكن تلك بأمور جديدة عليها، وإنما هي بطبعها المرأة العارفة الحكيمة التي شاركت زوجها الراحل في شؤون الحكم، فاكتسبت معرفة في السياسة والإدارة، ولم تكن هي في وضعها هذا فريدة في مجالها، وإنما كان للنسوة دورهن المعروف والمشهود في الحياة السياسية وخاصة الاقتصادية، وساهمت الملكة تيفاني في ذلك وشجعته، لذلك لم يكن مستغربا أن تعرف وتشارك في كثير من أمور الحكم، فقد كان لها عيونها ووسائلها الخاصة التي غابت عن أذهان

الرجال، وعندما أسرّت لولدها عن مكان حبيبته الغادرة، فقد كانت صادقة وتعرف أين المكان الذي احتجزها الرومان فيه، رغم أنها لا تعتبرها غادرة ولا خائنة مخادعة، وإنما يمكن لأي امرأة حرة نبيلة أن تصنع مثلها عندما تقدم سعادة وطنها وأهلها على سعادتها الخاصة.

اقتربت الملكة من ولدها، ثم ربتت على كتفه وأخذت تمسح شعره بحنان وشفقة وهي تقول كلاما أقرب إلى الهمس: أي ملك أنت يا بني الذي لا يعرف أين هي حبيبته التي يبكيها ليل نهار..ثم قالت بصوت مرتفع: إنها أسيرة في قصر سيبيون إمليانوس مولاكم جميعا، يبدو أنها راقت للقائد الروماني وسوف يتخذها محظية له.

انتفض ماسين لسماع ذلك، وقال وقد احمر وجهه وجحظت عيناه حتى كاد ينفجر: أقسم بكل عظيم في السماء لن يكون ذلك أبدا، وسوف أسترجعها منه، وإني على ثقة أن الأفريكانوس لن يردني خائبا.

وقد كانت له فضائل جمة على قائد الجيوش الرومانية، وهذا الأخير لم ينكرها أبدا، وإنما كان يعترف بفضائل حليفه النوميدي بفخر ومحبة، ويردد دوما لولا

فرسانه لكنا اليوم غرقى في مستنقعات هسبانيا. تابع ماسينيسا بلهجة ودودة كأنه يستجدي عطف أمه: إنه قائد عظيم يا أماه، وقلة هم الذين عرفوه كما عرفته.

ابتعدت المرأة قليلا ثم اتجهت نحو جناحها وهي تقول: وهل ما زلت تسميه عظيما؟؟.

كانت وصيفتها تتبعها فسمعت جملتها الأخيرة، فقالت بأدب: أتسمحين يا مولاتي.

قالت: بالطبع ماذا لديك يا مايا؟.

قالت: أنت تقسين كثيرا على الملك يا مولاتي، واعذريني لو قلت، لولا معرفتي بأنك أمه المحبة لقلت إنك زوجة أبيه.

نبست الملكة بكلمات أقرب إلى الهمس كأنها تحدث نفسها: إنه داء العشق يا مايا العزيزة، يمكن للحب أن يصنع من الرجل سحابة لا تمطر إلا خيرا وبركات، أو يجعله بركانا ثائرا يقذف حممه ونيرانه على الجميع.

قالت الخادمة وهي تنظر إلى الأرض بعينين وجلتين: أليس من علاج شاف لهذا الداء يا مولاتي؟.

لو كان للعشق علاجا وبلسما لما عشقنا أصلا، فإنه يباغتنا ويحتلنا ويغرس أنيابه الوردية في أعماق قلوبنا وعقولنا، ويجعلنا أسارى له، فكيف يكون الخلاص من مثل هذا الوحش الجميل الذي نحبه جميعا ونخشى فراقه وهجرانه.

ابتسمت الملكة لهذه الملاحظة فقالت وهي تنتقي كلماتها: أما ولدي فإنه قرة عيني ومصدر سعادتي وأتمنى أن أراه ملكا عظيما على كل هذه الأرض، وآمل أن يكون ذلك قريبا، ولكن لا أذيع سرا عندما أكرر صبحا ومساء إنني أكره روما ورجالها، نعم لا يمكنني إخفاء مشاعري تجاه هؤلاء الغرباء الذين لم يحملوا ولن يحملوا لنا أي خير.

كانت الملكة الأم محقة في نظر نفسها، فقد كانت قراءتها لما يحدث تختلف تماما عن رؤية ابنها وتقديره، رغم أن ماسينيسا الملك الشاب لم يكن يود الرومان كثيرا ولا تسعده رؤيتهم، وهو لم يكن ليتحالف معهم ضد أبناء عمومته وضد قائده العظيم هانيبعل القرطاجني إلا تحت وطأة ضغوطات عاطفية وشخصية عظيمة، وقد كان يرى في زعيم قرطاجنة مثلا

يحتذى به وقدوة، لقد كان يحبه بقدر ما يغار منه ويحسده ويتمنى أن يكون مثله، وقد أخبرته عرافة بدوية من المشواش بعد عودته من هسبانيا أنه سيفوق هانيبعل في العظمة والقوة والتقدير، ولكن تابعت بوجل: لن يتأتى لك تحقيق جميع أحلامك، وعندما سألها عن السبب أشارت بإصبعها نحو السماء ومضت بصمت بعد أن رفضت أن تأخذ منه أجرتها، فألقى إليها بعدة قطع نقدية ذهبية، فلم تبال العجوز بماله ولا بصياحه من ورائها، فتملكه الغضب الشديد فأسرع وراءها وشدها من شال أسود مهترئ كانت تلف به رأسها، فتقطع الشال وقال بوجه أشد حمرة من الخمر الذي كان يعشقه: ما بالك يا امرأة لا تجيبي ولم تأخذي أجرتك، تلك وقاحة وقلة احترام منك، فقالت المرأة وهي تركز نظرها في عينيه: المعذرة أيها الملك، فلست ممن يسعدون بنقود الرومان، وقد كنت أتمنى أن أرى رسمك على تلك القطع الذهبية وليس نقوش الرومان.

اختض ماسين من المفاجأة والدهشة معا فسألها: ولم نعتني بالملك وما أنا إلا محارب قد اكتوى من البؤس والغربة كما ترين؟. قالت: ألست ابن ملك؟.

قال: وإن يكن، فهل قرأت على جبيني أني ابن ملك سيكون ملكا؟. قالت وهي ترسل ابتسامة خفيفة: بل أنت ملك يا مولاي، وسوف يكون لك ذلك، وليس كل أبناء الملوك ملوكا يستحقون مثل هذه الصفة.

كان كلما اختلى إلى نفسه تذكر كلمات العرافة المشواشية، فتهزه قشعريرة كان يستعيذ من شرها، حتى تملكه هاجس لازمه طوال حياته، فقد سكنته العظمة والطموح، وأصبح يعتقد جازما أنه خلق لأداء أدوار عظيمة وأنه يختلف عن جميع الملوك والقادة حتى عن سيبيون نفسه بل وهانيبعل شخصيا، ومع ذلك لم يعرف الغرور طريقه إلى قلبه وإنما أدرك أن الوصول إلى حلمه الغامض يحتاج إلى عزيمة وإصرار ومثابرة.. قال هامسا: وتضحية عظيمة أيضا، ولكن بم علي أن أضحي؟.

لو علم أن عليه أن يضحي بقلبه هل كان سيفعل مقابل المجد والرفعة؟.

حتى هو نفسه لم يكن يمتلك إجابة واضحة على مثل هذا السؤال الهاجس، ولم يكن يعتقد للحظة أنه سيرى قلبه مذبوحا ومطعونا بين يديه، ما سيدفعه لاحقا لتغيير جميع خططه وإستراتيجيته وأفكاره، وحتى تحالفاته ستنقلب رأسا على عقب، ولكن كيف سيقنع كل أولئك الجند الذين قاتلوا معه إلى جانب القرطاجيين، بأن عليهم اليوم أن يقلبوا أسيافهم ويحولوها إلى الجانب الآخر.

ولحسن حظه وجد الإجابة عند صديق له اسمه أماياس وكان هذا مثل اسمه تماما فهدا شرسا لا يهاب الوغى والصراع، وكان في الوقت نفسه راهبا ناسكا أخلص العبادة لربه بعل أمون، فكان يقاتل نهارا ويتعبد ليلا، وعندما وجد الحيرة في وجه صديقه ماسين، سأله عما يشغله ويقلق راحته، فأخبره الأمير ماسينيسا بما عقد العزم عليه، ولكن كيف سيقنع جنده بذلك، فقال أماياس: وهل تشغل نفسك بما سيقوله هؤلاء، لو أنك عرفت كم بقي معنا من جند وفرسان لغيرت رأيك يا مولاي.

قال ماسينيسا: لا أحب مولاي هذه، في الحروب تنعدم الفوارق والطبقات يا صديقي، فمن يدري من يقتل فينا أولا، ومن الذي سيجد نفسه مضطرا لدفن صاحبه، وقد تطعمني إن جرحت وأجد نفسي مضطرا لمسح برازك إن أصبت، ابتسم أماياس لهذا الخاطر، بينما اكتسى وجه ماسينيسا بمسحة من الجد، ظهر بسببها أكبر من عمره.. صمت قليلا ثم تابع: وهل فقدنا جميع فرساننا أو أنهم انضموا لأعدائنا؟.

قال أماياس وكأنه يخمن في الإجابة: من يدري لقد اختلط كل شيء، ولم نعد نعرف حقيقة ما يجري، وما أنا على ثقة منه أن عدد الفرسان معنا لا يتجاوز المئتين.

أرسل ماسين صفرة طويلة وقال: من كل تلك الآلاف وصلنا إلى شرذمة قليلة؟.

فبدأ أول غاراته على الملك المازيسيلي صيفاقس وحليفه صدر بعل جيسكو، فدمر وخرب وقتل، حتى بلغ عدد ضحاياه في معركة واحدة أكثر من عشرين ألف مقاتل نوميدي غربي وقرطاجي، قضى معظمهم حرقا داخل معسكرهم في موريتانيا.

كان سيفه ظمآن عطشا لدماء أعدائه، وكانوا قد خطفوا أمه واتخذوها رهينة، وسرقوا حبيبته، وصادروا مملكته التي ورثها عن والده، فلم يتبق أمام الملك الشاب إلا القتال والثأر.

لكن قلة كانوا يعتقدون أن ماسينيسا سيد قومه، بإمكانه أن يحقق ما يعتد به ضد أعدائه من أبناء عمومته ومعهم القرطاجيين، لكن من يعرفه يثق ويقسم صادقا أن لهذا الملك قدرات خارقة، وأن من يستهين به هو الغبي الأرعن الذي لم يختبر أفعال الرجال ومعادنهم.

لقد تمكن ماسنيسا بقواته قليلة العدد من صنع معجزة حربية، لا يقدر عليها إلا أصحاب الهمم العالية والإرادة الصلبة، بل ويعجز عنها حتى القادة العظام، وكان قد وصله يومها خبر وفاة والده، وأنه أصبح الملك غير المتوج، فانضم بفرسانه القلائل إلى قوات سيبيون القائد الروماني، بعدما كان قد خسر معظم مملكته لصالح قرطاج وحليفها صيفاقس، وقد عرف عن القائد الروماني فراسته ومعرفته بمعادن الرجال، فاستبشر بالملك الجديد خيرا، وتيقن أنه سيصنع الكثير

بفضل معونته ومعرفته لساحة الحرب الجديدة، ولم تخيب الأقدار رجاءه، حيث قام قادة الجيش النوميدي الماسيلي بجمع شتاتهم، فكونوا جيشا من نحو عشرة آلاف فارس، هم أشد الفرسان بأسا وبطشا، بعدما امتلأت قلوبهم غلا وحقدا على الحال الذي وجدوا أنفسهم فيه، ومع إضافة ثلاثين ألف مقاتل روماني اكتمل التحالف بين سيبيون والملك ماسينيسا، وسار هؤلاء نحو منطقة زاما جنوب قرطاج، وهناك وقعت المعركة الفاصلة التي كانت بداية عهد جديد، ونهاية عهد قديم، حيث تمكن فيه الرومان من بسط نفوذهم وسيطرتهم على كل شمال إفريقية، وأيضا كان ولادة عهد المملكة النوميدية الموحدة ونهضتها الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وقد حلم بانيها ومؤسسها ماسينيسا بن غايا أن يجعل منها دولة قوية مهابة ذات سيادة، ولكن ذلك لم يكن ليتحقق كما اشتهى الملك بوجود الرومان، الذين تغافلوا عن نوايا ملك الأمازيغ بفضل نفوذ صاحبه سيبيون الإفريقي، فقد كان هذا من

حماة الدولة النوميدية الحديثة، وفي الوقت نفسه كان عائقا أمام وحدتها الكاملة.

كثيرا ما تساءل ماسينيسا عن نوايا الرجل الحقيقية، ولم يجد غير صديقه المخلص أماياس ليوضح له بعض معالم الصورة، ساعة قال له: إن الرومان لن يدعونا نكبر كما نحب، ولن يتركونا نصغر كما كنا.

لمحة تاريخية

أطلق اسم نوميديا على القسم الأوسط من إفريقيا الشمالية، التي تنقسم بدورها إلى قسمين: نوميديا الشرقية أو ماسولة "مازولة"، ونوميديا الغربية أو مازيسولة، يفصل بينهما نهر الشلف.

أما موريتانيا فكانت تطلق على القسم الغربي من شمال إفريقيا والممتد من نهر ملوية الحالي حتى المحيط الأطلسي غربا، وقد نحت الاسم من اسم القبائل المورية الأمازيغية التي كانت تعيش هناك، بينما يوجد في شرق مملكة نوميديا أفريكا التي كانت تجمع بين ليبيا وتونس على حد سواء.

ولما اشتدت الحرب البونيقية الثانية بين الرومان والقرطاجنيين، حاولت كل من روما وقرطاجنة أن تجذبا ممالك نوميديا إليهما، ولم يكن لأي قوة منهما أن تحقق الانتصار إلا إذا وجدت من سكان المنطقة

وحكامها داعما وسندا، ولم تكن قرطاجنة على أية حال ظاهرة غريبة وأجنبية عن المنطقة، عكس روما التي تمثل الاستعمار والهيمنة، ومع ذلك تسابقت القوتان على استمالة الملك صيفاقس لصالحهما كي يساعدهما في حربهما الطويلة، والتي أخذت اسمها من صفة الفينيقي التي كان الرومان يسمون بها القرطاجيين.

تدخل صيفاقس في أول الأمر للصلح بين الطرفين، ولكن الحكومة الرومانية كانت متعنتة في مواقفها المعادية للقرطاجنيين، فمال صيفاقس إلى قرطاجنة وتزوج من جميلة قرطاج الحسناء صوفونيسبا، وهي للمناسبة كانت خطيبة لملك نوميدي شاب هو ماسينيسا، وأصبح صيفاقس مواليا للقوات القرطاجنية بعد أن علم بنوايا روما الاستعمارية وأطماعها في شمال أفريقيا.

لجأت روما إلى الأمير الطموح ماسينيسا، الذي كان هو بدوره يبحث عن حليف يسانده ضد غريمه صيفاقس وقرطاجنة حليفته، فالتقت المصالح المتناقضة وقام الحلف بين سيبيون إيمليانوس الإفريقي وماسينيسا بن غايا ملك مازيليا، وقد أغرى الرومان

حليفهم بامتيازات في عطاءات مالية والسماح له بالتوسع في أراضي القرطاجنيين التي سيحصل عليها بمجرد القضاء على منافسه صيفاقس والتحالف مع الرومان للقضاء على القوات القرطاجنية.

لقد أثار حفيظته تزويج القرطاجيين صيفاقس مخطوبته صوفونيسبا. والواقع أن جيرانه القرطاجنيين كانوا متواطئين مع خصمه المازولوسي قصد القضاء على ملكه، فلم يجد بدا من محالفة الرومان، مع إضمار غايته القصوى في نفسه، وهي إنشاء مملكة أمازيغية موحدة مستقلة عن كل نفوذ أجنبي، ولاسيما أن اتفاقية الصلح بين روما وقرطاجة (201 ق.م) كانت تنص على أن من حقه أن يعمل من أجل استرجاع جميع الأراضي التي كانت بقبضة أجداده، في غير تحديد لتلك الأراضي.

ومن المعلوم أيضا، أن صيفاقس تحالف في البداية مع الرومان إبان الحرب البونيقية الثانية، وكان في نفس الوقت معارضا لغايا ملك نوميديا الشرقية وابنه ماسينيسا المتحالفين مع القرطاجنيين، لكن صيفاقس توسع في مملكة نوميديا الشرقية بعد وفاة ملكها،

كان ماسينيسا في بداية الأمر حليفا للفينيقيين، ولما رأى تهاون قرطاجنة وعدم مبالاتها تجاه حقه في الولاية على عرش أبيه، خرج عن طاعة قرطاجنة وتحالف مع الحكومة الرومانية وخاصة مع القائد الروماني الأكبر سيبيون الأفريقي الذي حاصر قرطاجنة، وقام بتطويق ملك صيفاقس في مملكته مازيسولة.

تمكن القائد الروماني كايوس لايليوس من الانتصار على صيفاقس فوقع أسيرا سنة 203 قبل الميلاد بفضل مساعدة ماسينيسا، وقد تولى الحكم بعد صيفاقس ابنه فيرمينا الذي يعد آخر ملك مازوليسي قبل أن توحد مملكة نوميديا من قبل ماسينيسا.

نكبة قرطاج

وجد ماسينيسا نفسه مرغما على التعاون ثم التحالف والقتال إلى جانب الرومان، وكان في البداية يشعر ببعض الحرج عندما كان يستل سيفه لحماية ظهر قائد روماني، وهو الذي كان قبل وقت قصير يوجه نفس السيف إلى قلوب الرومان ولا يرف له جفن عندما يخرج أحشاء عدوه، فوجد نفسه مرغما على لعب دور لا يليق به.

لكن الشعور بالذنب سرعان ما تلاشى، وحل مكانه خواء يشبه الصحراء القاحلة القاتلة التي لا ترحم حتى ذرات رملها، فأصبح يرى يده ومقبض السيف سيان، ولا يفرق بينهما، طالما كان ذلك سيحقق له طمأنينة داخلية عجز الحب عنها.

استعدادا للمعركة، قام القائد هانيبعل بتجنيد نحو 12 ألف مقاتل، إضافة إلى 25 ألف رجل من المشاة والفرسان، واستعان بثمانين فيلا، وفي تاريخ 202 ق.م التقى أقوى جيشين غرب المتوسط يقودهما أقوى قائدين عسكريين نفوذا في عصرهما، في منطقة زاما، التي تبعد حوالي عشرة كيلومترات جنوب غرب قرطاجة، وقام كل قائد بتشكيل قواته بطريقة تمكنه من حسم المعركة بسرعة وقوة، فقسم سيبيون إيمليانوس مشاته إلى ثلاثة صفوف متوازية، ووضع قليلي الخبرة في المقدمة، والمحاربين المحنكين في المؤخرة، ووقف الفرسان على الجناحين. كما ترك مسافة فاصلة تمتد من 10-20 مترا بين كل سرية مؤلفة من 120 رجلا وأخرى.

أما هانيبعل فنظم جيشه بطريقة مماثلة، ولكن دون فواصل، ووضع صفا من الفيلة في مقدمة مشاته، وعندما بدأت مجموعة الفيلة بالقتال وكان هانيبعل يعول عليها كثيرا، قام الرومان بفضل نصيحة ماسينيسا بالنفخ في الأبواق وضربوا بسيوفهم على تروسهم، وخلقوا ضجة كبرى جفلت منها الفيلة، واتجه بعضها نحو الفواصل

المتروكة بقصد في الصفوف الأمامية الرومانية، وهربت الأخرىٰ إلىٰ الخلف أو نحو الجناحين.

قام الفرسان الرومان بهجوم مقابل علىٰ الخيالة القرطاجيين، وردوهم إلىٰ الوراء، ورغم فشل فيلته وتقهقر فرسانه، تقدم جيش هانيبعل وما أن اخترق القرطاجيون خط الدفاع الأول للرومان حتىٰ انقض عليهم الفرسان النوميديين بقيادة ماسينيسا من الخلف، وقد أتاحت هذه المناورة لصفي سيبيون الثاني والثالث بإحكام تطويق مشاة القرطاجيين.

انقضىٰ يوم القتال الأول وقد وقع قرابة نصف الجيش القرطاجي صرعىٰ في حقول زاما، وأسر الرومان أكثر من ذلك، فاضطر هانيبعل للفرار مع قلة من رجاله، ثم تحرك سيبيون وماسينيسا نحو مدينة قرطاجة، ورغم نقص معدات الحصار، كان باستطاعة الرومان تدمير المدينة، وكانت تلك رغبة ماسينيسا، لكن قائد الجيوش الرومانية رفض تدمير المدينة، وفضل أن يمنح أهلها سلما كريما، وفوق ذلك سمح لهانيبعل بالعودة واستلام القيادة فيها، لكنه رفض الطلب

الروماني وفي الآخير، تم نفيه إلى سوريا. وهناك إنضم إلى جماعة أخرى مناوئة لروما. وأخيرا اختار الانتحار بدل الأسر في 183 ق.م.

بعدما انجلى غبار المعركة، أخذ الاضطراب والقلق يزولان عنه تدريجيا، وقد عرف أن الحبيبة ما زالت حية ترزق، فلم لا يثبت لها على الأقل أنه أكثر نبلا منها ومن قومها الذين باعته من أجلهم، فعقد العزم على تحريرها، وتلك ستكون صفعة قوية من جانبه ولطمة عظيمة سوف لن تنمحي أبدا.

وهو الذي كان يكثر من قول نعم، نعم، قاصدا منها أنه أرغم على كل ما قام به، وفي نفس الوقت ليس نادما عليه، فقد أعلن رضاه بالأقدار التي ساقته كما ساقت غيره، وربما اكتسب هذا الرضى من صديقه أماياس الذي اختفت آثاره في معركة زاما، حيث تمكن هذا الناسك المقاتل من غرس كثير من القيم في نفس صديقه، بفضل العشرة ودوام الصحبة، وإذن لطالما ردد في نفسه أنه مرغم على لعب هذه التمثيلية البائسة، وكان يعزي نفسه دوما بخيانة الأحباب له، فلو لم يصنعوا لما

فعل، فعلق كل شيء على قوله "لو" ولكن إلى متى، وقد عرف أن حبيبته التي يعشق حبيسة لدى القنصل الروماني الذي أوشك أن يكون صاحبه وصديقه.

كان يمني نفسه بأن لا يرفض القنصل سيبيون إيمليانوس طلبه، وأنه لن يرده خائبا، ولا بأس من المحاولة، فالرجل رغم سمعته الحربية العظيمة التي اكتسبها بعد دحره لقوات هانيبعل القرطاجني، لم يتخل عن حبه وتواضعه مع أصدقائه، وإن كان يرى نفسه أكبر من شيوخ روما، وقد فعلها أكثر من مرة يوم واجه السيناتورات وتحداهم وبصق على قفاهم، وقال لهم بتحد مبالغ فيه: أنتم هنا تلاحقون الفتيات الصغيرات، وتترنحون كالبغال الهرمة من كثرة النبيذ، وتعتقدون أن خطر هانيبعل ابتعد عنكم بفضل مجهوداتكم الجبارة، ثم أعطاهم ظهره وهو يقول: أخبروني أن القرطاجي الأزرق كان كلما سمع ضراطكم ارتعدت فرائصه من الخوف.

ضرب سيبيون الإفريقي الأرض بصندله الجلدي الخشن، فأحدث صوتا عظيما بفعل النحاس الذي كان يضعه في نعله، ثم قال وهو يتميز من الغيظ: بلغني

أنكم تفكرون بل قررتم أن تقيدوني بقناصل جددا ترسلوهم إلى الضفة الأخرى بحجة مساعدتي، ولست أدري متى طلبت منكم مثل هذه المساعدة والمعونة؟.

ساد على الجميع صمت مخيف أشبه ما يكون بإحدى الغارات الهادئة التي كان ينفذها في هسبانيا ومن بعدها في موريتانيا الطنجية، ولم يقطع صمت القاعة الرخامية البيضاء الباردة سوى أزمة سعال متواصل أصابت أحد السيناتورات، ولما اشتدت الكحة بالعجوز أمر إيمليانوس قائلا: أسرعوا إليه بالنبيذ أخشى أن يقولوا غدا إنني كنت سببا في ذهاب أنفاسه.

سأل أحد المشايخ الذين يكن لهم سيبيون بعض احترام: ولكن أخبرنا أيها القنصل المبجل، هل قصّر مجلسنا هذا في دعمكم وتوفير جميع احتياجاتكم؟.

قال وهو يتحاشى النظر في عيني صاحبه: أقدر لكم معونتكم، ولكن اعلموا أنه لولا انضمام قوة الملك النوميدي الشاب ماسينيسا إلى قوتنا لكنا اليوم في وضع لا نحسد عليه أبدا.

سأل سيناتور: هل تقول إن النوميديين البربر يحمون روما العظيمة؟ ولم ينتظر هذا سماع إجابة الإفريقي، فتابع قائلا: مؤسف أن أسمع ذلك، يا لروما المسكينة، لقد أصبحنا تحت رحمة البربر.

قال سيبيون الإفريقي: إنها الحقيقة أيها العجوز المتأسف، ولك أن تطيل من عبارات التأسف فلن يغير ذلك من الواقع شيئا، وإن كانت روما مسكينة فلأنها لم تجد حاكما جادا يسوسها، فانتشر فيها السوس.. هل تعرف السوس أيها السيناتور المبجل؟.

سرت في القاعة موجة من الضحك، بسبب الطريقة التهكمية التي كان يخاطب فيها القنصل ذلك السيناتور، بعد تلك الجلسة الصاخبة، ظن الجميع وخاصة قادة الجيش، أن سيبيون الإفريقي لابد أن ينصب نفسه حاكما لروما، ولكن عندما ينتهي من أمر هانيبعل، في حين كان القنصل الروماني يفكر بأشياء أخرى لم تخطر لهؤلاء على بال.

إذن أحيانا كانوا يحسبونه سينصب نفسه امبراطورا رغم أنف الجميع، ويقضي على النظام الجمهوري

المهترئ الذي بلغ فيه الفساد حدا لا يطاق، ولم يكن الإفريقي كما أصبح يلقب، في هذا الوارد، لقد نذر نفسه للقتال، وجعل كل همه أن يهزم هانيبعل دون أن يقضي عليه، وقد قال ذلك يوما لصديقه الملك النوميدي ماسينيسا، وأعلن له أنه لن يقتل هانيبعل ولن يدمر قرطاجنة كما يحلم بذلك شيوخ روما، ولما سأل ماسينيسا عن السبب، رفع سيبيون حاجبيه دهشة وقال وهو يمط شفتيه: وهل تريدني حقا أن أقتله وأقضي عليه وأدمر معه غريمتك قرطاجنة؟.

أطلق ضحكة طويلة ثم قال: يبدو أنك تفكر مثل سيناتورات روما، لكن أولئك العجائز من المأفونين الذين أكرههم، أما أنت فصديقي الذي أكن له كل مودة وتقدير.

يا لسخرية الأقدار، ماسينيسا يتحرق غيظا والروماني يضحك ويسخر من مشايخه، وقد كان السؤال صعبا وثقيلا على قلب ماسينيسا وعقله، فهو مشتت الذهن مكلوم الفؤاد، ويحسب أن لا أحد يحس به ويشاطره مشاعره، وكيف لا يكره قرطاجنة وقد حرمته من حبيبته

القرطاجية، وكيف لا يكره هانيبعل الذي حارب تحت قيادته يوما، وكان يعتبره مثلا وقدوة، لكنه في النهاية اكتشف فيه رجلا عاديا مغامرا ليس إلا، أو على الأقل بهذه العبارات كان يطمئن نفسه ويخفف عنها.

انتظر سيبيون إيمليانوس إجابة كانت صعبة جدا على صاحبها، ولما تأخر ماسينيسا في الرد، باغته بسؤال آخر أشد مضاء وقسوة، قال الروماني بخبث لم يحاول إخفاءه: لماذا تكره قرطاجنة أيها الملك الشاب وهي أقرب إليكم منا نحن الرومان الذين نعرف أن معظمكم يهابنا أكثر مما يكن لنا من الحب والود؟.

لا شك أنكم ترون في قرطاجنة غنيمة سهلة وقريبة منكم، بينما روما وراء البحر ومن الصعب الوصول إليها، وخاصة بعدما حاول هانيبعل ذلك، وقد رأيت كيف كانت نهايته.

قال سيبيون وهو يهز رأسه أسفا: يا لنهاية هذا الرجل، لم أكن أتمنى له مثل هذا المصير، ولا أكتمك سرا أيها الملك البربري، لا أخفي إعجابي بالقرطاجي

الأزرق، لقد كان قائدا عسكريا بحق، ولولا أشياء كثيرة أنت تعرف معظمها لكانت روما اليوم في قبضته.

صمت الرجلان معا، ثم تحدث ماسينيسا دون أن يواجه صاحبه، وكانا يتناولان معا طعام العشاء، فقال: لقد عرفت أن أميرة قرطاج صوفونيسبا أسيرة لديكم، فهل لي أن أحظى بملكيتها، على الأقل سوف تعرف كما عرف قومها من يكون ماسينيسا؟.

كاد سيبيون الإفريقي أن يغص بلقمة كان يحاول ابتلاعها، مع أنه كان يتوقع هذا الطلب من صاحبه منذ مدة طويلة، وقد أدهشه انتظاره كل هذه المدة، فقال وهو يزج باللقمة في بلعومه مع جرعة من النبيذ، لا أعتقد أنك ما زلت تحبها يا صديقي الطيب.

قال ماسينيسا: ومن يتحدث عن الحب أيها العزيز، إنه مجرد دين أريد أن أسدده لها. أجاب سيبيون وهو يمسح فمه معلنا انتهاءه من الطعام: يؤسفني حقا ألا أستجيب لطلبك هذا، لقد أصبحت تلك الحسناء ملكية خاصة لا يمكنني انتزاعها من يد سيدها.

لم يسأله من يكون سيدها الجديد، فقد يكون هذا أغبى سؤال على الاطلاق، ويبدو أن الروماني قد فتن بجمالها، وسحرته أنوثتها، فأرادها محظية له، ولكن هل تقبل صوفونيسبا تمثيل هذا الدور؟.

ربما وأي ضير عندها..لا لا أعتقد..إنها أكبر من ذلك بكثير، كانت تلك هواجسه التي تتآكله.

كما شعر ماسينيسا بحرقة وجفاف في حلقه، فمن يكون سيد حبيبته سوى سيبيون هذا الذي كثيرا ما تمنى صحبته والقتال معه، وعندما فعل هاهو يبخل عليه بعطية امرأة أسيرة، وإن كانت عند الروماني عطية رخيصة فإنها بالنسبة له تعادل كل نصر تحقق.

كم هو صعب على الرجل أن ينتصر في جميع معاركه ويخسر معركة القلب، لذلك أراد أن يتابع فيرجو ويستجدي لكن كبرياءه منعه عن ذلك، لن يحط من كرامته أبدا، فلا أحد يستحق أن تدعوه وتستجديه غير الرب بعل آمون، يا إله الشمس كن بعون هذا الرجل الذي يكاد يزلزل العالم لو استطاع، ولكن على روما أن تسجل نقطة عليها لصالحه.

تماسك قليلا بعدما شعر بالأرض تميد تحت قدميه، فنظر حواليه كمن يستنجد بصديق أو رفيق، فلم يجد سوى تابعه النمرود، وكان هذا قد نذر نفسه لخدمة سيده دون أن يطلب منه ذلك، ولم يكن التابع يرغب في مقابل أو أجر، إنه من الذين يرون في الملك شخصا مقدسا ينبغي أن يحمل على الأكتاف ولا يمشي على الأرض، لكنه اليوم يراه على غير ما يحب ويشتهي، ولو ترك الأمر له لغرز خنجره في ظهر سيبيون الروماني دون أن يبالي بالعاقبة، وبإمكانه بقبضة يده فقط أن يعصره ويسحقه كمن يسحق ذبابة، ومثله يفعلها فقط إن تلقى إشارة من سيده، وكان للمناسبة ضخم الجثة عريض المنكبين، يفوق مليكه بالطول والعرض، فكان يصلح لتمثيل دور السد المانع الذي يحميه من السهام والرماح والرياح أيضا.

وكم كان الملك يمازحه قائلا: متى ستتوقف عن النمو يا نمرود؟. فيجيب هذا بلباقة وأدب: متى تأمرني بذلك يا مولاي.

فينطلق الملك في الضحك، وكلما أراد التوقف ينظر في عيني تابعه فيزداد ضحكا، وكان النمرود يسأله إن كان أخطأ في الإجابة، ومع ذلك فقد كان يحبه كثيرا ويحنو عليه، وقد تميز التابع بشغفه بقراءة الشعر والغناء، ورغم ضخامته كان يعزف على الربابة فيطرب ويثير الشجن، إضافة إلى صوته الشجي الجميل، من يسمعه مرة لا يمكن له أن ينساه بل سيطالبه بمزيد من الغناء.

انطلق ماسينيسا رفقة تابعه، وعندما ركب في العربة الملكية، قال نمرود الذي تولى قيادة العربة: إن شئت يا مولاي أحضرت لك السجينة القرطاجية رغما عن أنف الرومان، ولو أمرتني لأخرجت لك أحشاء هذا الروماني المتعجرف، إنه يأكل كالسنجاب.

تطلع ماسينيسا نحوه بنظرة ملؤها الشك والاستفهام، وقال: كيف تجرؤ على قول ذلك أمامي؟ قد تماديت يا نمرود.

-المعذرة يا مولاي، لم أقصد الإساءة أبدا، قال ذلك بصوت ناعم مرتعش كأنه طفل ارتكب معصية يستحق الضرب عليها.

- سر بالعربة ولا تكثر من الكلام، قال الملك آمرا.

بعد فترة صمت، سأله الملك: ولكن كيف ستحضر لي السجينة القرطاجية، من أين أتيت بهذه الثقة المفرطة؟.

- كل ما يمكنني قوله يا مولاي، أنك إن أمرتني فسوف أنفذ مشيئتك مهما كان الثمن، وأعتقد أن لدي المقدرة على ذلك.

- يا لك من تابع عجيب يا نمرود، ولكن أخبرني إذا كان سيبيون يأكل كالسنجاب فكيف وجدتني آكل؟. أجاب مبتهجا: إنك تأكل كالأسد يا مولاي.

يا لإجابتك المتملقة، وكيف يأكل الأسد أيها العملاق؟.

- إنه يأكل بنفس طريقتك الرائعة يا مولاي.

أي تابع هذا، همس الملك لنفسه.

لم أر وأسمع أعجب من إجابتك، رفع صوته متسائلا: وهل ستحضرها لي إن أمرتك؟.

- من المؤكد ستكون بين يديكم يا مولاي.

تأكد له أن تابعه جاد في كلامه، وأنه يعرف أشياء كثيرة لم يرغب في إزعاج مليكه بإطلاعه عليها. فسأل الملك متشككا وهو يبتسم: هل يمكنك ذلك حقا؟

هز رأسه موافقا، وقال: لو لم أكن متأكدا لما تكلمت يا مولاي. لم يكن لدى ماسينيسا ما يخسره، فقال: إذن أرني مهارتك، في اختراق الأسوار والغوص في البحار.

قال ذلك على سبيل المزاح، ولكي يتخلص من إلحاح تابعه الذي نصب نفسه حارسا أمينا له من تلقاء نفسه، أما هو فقرر أن يذهب إلى وزيره الحكيم في بيته، فأمر تابعه بالتوجه نحو بيت الوزير غيلاس، فمن الحكمة الاجتماع به، فقد يجدان معا حلا لهذا المأزق، ولن يعدم فائدة من رجاحة عقل الوزير ودرايته، وسعة اطلاعه ومعرفته بخبايا الأمور، إذ لم تستقر الأمور بعد، حتى صار الرومان يحللون ويحرمون، ويسمحون ويمنعون.

كانت هذه مؤشرات كافية لماسينيسا، حتى يعرف أن حلفاءه الجدد ليسوا أفضل شأنا من سابقيهم، بينما كان يراهم وزيره غيلاس أسوأ من القرطاجيين بكثير، فهؤلاء أصبحوا وأمسوا من أبناء المنطقة ومعمريها، أما

الرومان فلم يكن يحركهم سوى الجشع والطمع، وكما قال لمليكه يوما: متى عرفت روما الشبع يا مولاي؟.

لم يجب ماسينيسا، وإنما اكتفى بهز رأسه، وهو يقول في نفسه: ليس فينا من يعرف الشبع أيها الوزير، كل واحد فينا فيه شيء من الجوع لشيء ما، جميعنا جوعى ولكن نختلف في شكل جوعنا، لسلطة أو مال أو امرأة، وربما لعلم ومعرفة ومجد وخلود....أما روما؟ من يدري.

ولادة حب

قبل سنوات طويلة من هذه اللحظات الحرجة، عندما كان كل شيء يسير على خير ما يرام، كان الشاب ماسين يتلقى تدريبا عسكريا في قرطاج، ضمن مدرسة الضباط التي كان يشرف عليها القائد صدر بعل جيسكو، وكان هذا قائدا صلبا عنيدا، يتميز بالقسوة وقلة الصبر، لكن وجود ابنته الجميلة الفاتنة كان يشفع له كثيرا من فلتاته المؤذية عند ضباطه ومخدوميه.

خرجت الابنة الحسناء للتريض على حصانها، كما اعتادت أن تفعل دوما، وكان الضباط الشباب يراقبونها ويحسدونها ويتمنون الحديث معها، لكن الحسناء لم تقم أي اعتبار لهم، إلا للشاب ماسين الذي أثار انتباهها، قبل أن يقاتل تحت راية صدر بعل جيسكو ولم يبلغ سن الثامنة عشر يومها، كان شابا غرا مقارنة بأقرانه، لكنه تفوق عليهم في قوة الجسم والمعرفة، وصلابة العزيمة والملاحة

أيضا، لقد كان جميلا مليح الوجه جميل التقاطيع، ولم يفرقوا بينه وبين البنات أثناء صغره لجمال وجهه وفتنته، وهي اليوم أغرمت به وعشقته وتلاشت فيه حبا، لكن دون أن تخبره أو تشعره بما يعتمل في قلبها من أشواق.

وبينما كانت تسير بحصانها قرب شاطئ البحر، باغتتها أمطار الخريف ورياحه، وقد حسبت أن الجو اليوم مناسب جدا لمسير طويل على حصانها الأشهب، فسارت مسرعة كي تحتمي من هبة ريح عنيفة أسقطت الشال الحريري عن رأسها، وألصقت بجسدها العاري قميصها القطني الأبيض، كانت أقل من عارية وأكثر من فاتنة، لقد زادتها الملابس المبلولة إثارة وجاذبية، حتى بدت تكويرة نهديها العذراوين واضحة جلية، بما فيهما من علامات شبق ورغبة، ارتجفت صوفو ليس من البرد، لكن من معرفتها البديهية أن ذلك الضابط الذي خلفته وراءها يشاهدها ويتفرس بها، وهو ليس بعيدا عنها كما لو كانت قطة تتفرس في فأر.

كانت تحدث نفسها بطريقة مجنونة وعصبية، سوف يحسبني من الساقطات الذين لفظتهم الحياة على هامشها، يا لهذه الرياح الوقحة التي وضعتني في هذا الموقف.

قالت تشجع نفسها: علي أن أسير كأن شيئا لم يكن، لا بد أن أرفع ذقني قليلا، فلا يمكنه أن يسيء إلي، لكنني مع ذلك لن أدعه يراني، ولن أستسلم لنظراته، اختلطت ضحكته التي بدت وحشية مع هبوب الريح، فأيقنت أنه يسخر منها، وينتظر إشارتها لكي ينجدها ويسعفها من هذه الورطة، أما الضابط الشاب الملتزم، فقد كان يراقبها خوفا عليها وليس تشفيا أو لأسباب كان تتوهمها فقط. كانت تعبر عن هواجسها دون أن تراه، بل ولم يتح لها معرفة تفاصيله لقد كان كالشبح المتخفي بعتمة المساء.

سمعت صوت قدميه اللتين تتقدمان نحوها، دق قلبها بعنف من الخوف لكنها مع ذلك، احتفظت بثبات أعصابها كما كانت تصنع منذ طفولتها، عندما كانوا يخوفونها من الغول والتابعة.

نزعت العصابة التي انداحت على عينيها بقوة، أو هكذا شعرت بسبب خوفها والظنون التي كانت

تقاذفها، فأرجعت شعرها إلى الوراء وهي ساخطة. ثم نظرت إليه، لكن تحولت عدوانيتها إلى دهشة، لقد تعرفت عليه بعدما كانت تحسبه جنديا آخر، أو الذي كانت تعتقده من الذين يطاردونها من شباب المدينة يطلبون ودها وقربها، فليس هو من قطاع الطرق، الذين يلاحقون النساء بلا مروءة أو كرامة، وأخلاقه أرفع وأسمى بكثير من شباب مدينتها الأثرياء، فالقرطاجيون الشباب الذين لم تتح لهم فرصة الانخراط في الجندية، هم أشبه بصعاليك لا يعرفون سوى الخمر والنساء والمقامرة.

إنني أعرفه أشد المعرفة، بهذا هتفت لنفسها، فقد مارسنا الحب في غرفة شبه مهجورة ذات يوم خريفي، فعلناها على رائحة الكلأ بجانب الخيول والتراب.

مازالت تذكر ذلك اليوم وتلك اللحظات بدقتها، وحفظت تفاصيلها ودقائقها، ولم تخف ما حدث عن وصيفتها عليسة، وعندما كانت تقص عليها ما حدث لم تشعر بالخجل أو الحياء، وإنما كانت تتلذذ بما ترويه من تفاصيل، قالت: كان اتحادنا صاخبا وملتهبا، بقينا

متمددين وأذرعنا وسيقاننا متشابكة، تسربت أشعة الشمس من خلال شقوق الجدار ورسمت على صدره الكبير أشعة من الظل والنور.

قالت تبرر سهولة استسلامها له: كان لا بد أن يحدث هذا لكنه هو من اختار هذه اللحظة، وأنت تعلمين أنه أصبح بعدها خطيبي أو ما شابه.

رأيته لدى عودتي إلى غرفة المؤونة بعد نزهتي اليومية على جواد والدي الأصيل، لقد كان يستند إلى جانب المبنى، كان مستلق بمفرده في الفناء وبدأ قلبي ينبض بقوة، أتعرفين لقد تمنيت أن يغتصبني بقوة، وشعرت بنار تأكلني، وخاصة بعدما تمعنت في ذراعيه وصدره العاري الموشى بشعر كثيف أعشقه.

ثم تماسكت وحاولت جاهدة أن أقمع رغبتي، فلا يعقل لفتاة ذات نشأة نبيلة أن تصنع ذلك، فنظرت إليه بكبرياء، أو هكذا تصنعت، تقدم نحوي دون أن يتعجل وابتسامة متعاظمة تعلو شفتيه، وأمسكني من خصري يساعدني في النزول عن الحصان، ولا أخفي عليك لكي أزعزع ثقته بنفسه، وبكبرياء أنثوي تركت جسدي

يلمس جسده حتى تلمس قدماي الأرض، تكدرت عيناه لكن استمر انتصاري عليه لفترة قصيرة، غير أني لم أعد أستطيع المقاومة، كنت أكثر من جريئة بل قولي مغامرة وقرصانة تخصصت في اصطياد الرجال.

أما هو فلم يكن جشعا مفجوعا كمعظم الرجال، لقد عرف الشبع في قصر أبيه، فكان إن أراد أن يأكل يختار بدقة ليتلذذ في مأكله، وهو هنا لا يقصد الطعام وإنما النسوة بالتأكيد، وقد زاد موقفه هذا من اشتعالها وفوران بركانها، لقد كانت مرجلا يغلي، وكان هو الحطاب الذي يتحكم بحرارة ناره، لذلك وبخلاف العادة والمساعدة، وبما يتناقض مع أعراف وآداب السلوك استمر في إمساكها وشدها إليه، وكانت هي تقول: إن كونه مجرد ضابط متدرب تحت قيادة أبي ومن طبقة اجتماعية أدنى من طبقتي زاد من رغبتي فيه، كانت أية علاقة حميمية بيني وبينه ممنوعة، لكنها كانت مغرية بشكل لذيذ.

أضف إلى ذلك أنه من أصل نوميدي وأنا فينيقية، ولما كان بدائيا متوحشا، أو قولي بربري أصيل، فإنه

فض علي مثل نبع عظيم. لقد هدهد أنوثتي ذلك الجو اللذيذ والمثير، وأخذت تثرثر بأشياء عن نفسها، لكي تظهر قيمتها كما تستحق وأكثر، فقالت: لقد تعلمت اليونانية وحتى الرومانية، أما هو فلست أعلم مستواه التعليمي، سوى أنه من الضباط الأكفاء، وقبل أن تتابع قالت وصيفتها: يقولون إنه أمير وابن ملك.

اختضت عندما سمعت بذلك.

لم تكن تتوقع أن وصيفتها تعرف أشياء كثيرة عن حبيبها، فذلك يعني أن الجميع يتحدثون عنها، وهي آخر من يعلم.

فقالت بعجلة: ربما لا أعتقد، وإن يكن فإنه نوميدي نبيل إذن، لكني سمعته يستخدم في أغلب الأوقات كلمات بذيئة لم أفهم منها كلمة واحدة، هل ينطق الأمراء بكلمات بذيئة سوقية؟.

قالت الوصيفة: ربما يفعلون في الحرب يا سيدتي.

قالت: آه نعم، لقد نسيت أنه من الضباط، وهؤلاء يتعلمون البذاءة كما يستلون سيوفهم ويقذفون رماحهم.

ثم تابعت مغيرة مجرى الحديث بطريقة صبيانية: إن يدي كما ترين كالمخمل الوردي، وأخذت تقلب يديها كأنما تكتشفهما للمرة الأولى، أما يداه فلا، لكن ليس للأمر أهمية، يا للهول عندما جذبني إليه، كنت كالفراشة في فم قط، وعندما وضعهما حول خصري ليجذبني إليه أكثر، كشرت له عن أنيابي.

سألت الوصيفة بدهشة: هل عضضته يا سيدتي؟ ألم يصنع لك.. قاطعتها قائلة: يا لك من بلهاء ساذجة، وهل تظنين أنني ذئبة؟.

أقصد أني جعلته يرى مني أشياء ممتعة، هزت عليسة رأسها دون أن تستوعب شيئا، بينما تابعت سيدتها كالحالمة: لقد خفض رأسه وقبلني كما لو كان له الحق في ذلك، لو لم يكن يحبني لما صنع، وقد داعبت خصلة شعره الطويل جبهتي الرقيقة عندما ضغط بفمه على فمي.

كان بود الوصيفة أن تسألها عن طعم شفتيه، لكنها فضلت الصمت فربما تحقق لنفسها لذة ذاتية لمجرد السماع فقط.

على الرغم من أنه تصرف هكذا لما رأى الرغبة في عيني إلا أن جرأته أغضبتني، حاولت إبعاده، لكنها كانت معركة خاسرة مقدما ليس فقط بسبب قوته، وعضلاته، ولكن أيضا بسبب الغليان المحتدم الذي كان في دمي، أعترف لك أنني لم أقاوم حقيقة لكي أفلت من عناقه عندما أطبق بشفتيه على فمي.

لقد عاشت تنتظر هذه اللحظة، فهل تضيعها وتدعها تفلت من شفتيها بعدما كاد أن يصبح ملكها.

عادة يقع الرجال في حب النساء، لكن ما يتعلق بصوفونيسبا فقد وقعت في غرام رجلها، فأمسكت فيه بمخالبها كأنها النسر الصحراوي الذي انقض على ظبي رضيع.

في هذه اللحظة كاد يغشى علي، قالت مستمتعة متلذذة وهي تستعيد تفاصيل ذلك العناق.

أما مستمعتها عليسة فهمست لنفسها، ويلي أعتقد أن الرجل هو من أغمي عليه، يا لشفتيك القرمزيتين يا سيدتي، إنني أراهما تتلمظان، يا لماسين المسكين أعتقد أنها انتزعت جزءا من شفتيه أيضا.

أخذت تبتسم لهذا الخاطر.

وابتسمت سيدتها معتقدة تأثرها بحديثها، فيما كانت السيدة تسترجع طعم القبلة كأنها تجترها من جديد.

ظلت تتحدث كأنها بصدد وصف تمثيلية خيالية، فقالت: تبعته وأنا ضعيفة لاهثة النفس وأترنح عندما جذبني إلى الجانب المظلم من الغرفة، ألم يكن هذا ما أرغبه؟ تساءلت وأجابت، ألم ينبغي أن تقودنا النظرات الملتهبة التي تبادلناها منذ أسابيع إلى هذا الموقف؟ ألم تكن مداعباتي المفاجئة ومواقفي المثيرة دعوة خافية إلى هذا الموقف؟ هناك أسرار ستتكشف لي، لكن قد أموت من الرغبة في معرفة ما يهمس به الخدم علي؟.. هزت عليسة رأسها كأن لا شيء يستحق الذكر، فالخدم يتحدثون عن أسيادهم ومخدوميهم في جميع الأحوال.

سألت صوفو: وهل تتحدثين أنت عني يا عليسة؟. قالت مستبشرة بالسؤال: أجل يا سيدتي، وكيف لي ألا أتحدث عنك، فكل ما فيك يدفع الواحدة منا للتفاخر بمجالستك.

سرّت السيدة لسماع ذلك، فقالت مبررة هيجانها العاطفي: لم أكن لألقي نفسي عليه لو لم أكن أعلم أنه يريدني، والحق حتى وإن غيرت رأيي فلن يتقبله، هل تعرفين كيف تستعر مشاعر الحب؟ ذلك ما كنا عليه ساعة جذبني أمام تلك الغرفة السحرية، خاضت أقدامنا حتى الركبتين في الكلأ المبلل ذي الرائحة المميزة، لقد شممت رائحة البابونج والريحان، رغم أن الجو كان حارا ومظلما.

كنت أستطيع التمييز جيدا، فلست ممن يسقطن مغشيا عليهن من القبلة الأولى.

وما أذكره أن كل شيء حولي كان ممتعا ولذيذا، ويشعر بما أحس به، فقد تراقصت ذرات التراب بجنون في الهواء الذي يشبه عاصفة صحراوية مجنونة، لو تدرين كم بلغت حرارتي ساعة شعرت بنهدي يعتصران على صدره، لقد كنت ليمونة حلوة المذاق، وشفتاه ملتصقتان بشفتي دائما، وبطريقة ما أحسست منها برغبته، هذا الجندي القوي الذي أعجبت به، وكانت أختي الشقية تستفزني به كثيرا، إنها تجهل للأسف ما يجمعنا معا، فقد أحببته قبل

ذلك ولكن في هدوء من خلف ستائر حجرتي، وهاهو يضمني إليه كما حلمت وتمنيت.

سقط المنديل الذي كنت أضعه حول عنقي، كما سقطت أيضا أشياء كثيرة كنت ألبسها دون أن أشعر، أرسلت ضحكة مغناج وهي تقول: ويحي ماذا حدث لي.

وعندما لمس ظهري العاري بيده الخشنة، أخذت أرتجف كورقة شجر خريفية، يا لضعف المرأة أمام الحب، غمرتني أحاسيس غامضة وأغمضت جفني، صرخت باسمه حينذاك، لكنه همس بالنغمة التي أحبها "اهدئي يا مهرتي".

هدأني بكلماته المطمئنة وارتفعت آهاتنا في تلك العتمة الوردية، دسست أصابعي في شعره من فرط الرغبة ثم قبلني قبلة شديدة، اعتقدت بعدها أنه التهم شفتي، لم أتصور قط أن تؤثر في هذه القبلة كل هذا التأثير.

ضمني إليه بقوة، وبقوة ضممته والتصقت به، والتصقنا أكثر حتى تحولت من عالم إلى عالم آخر.

ثم جاء صوت من خارج الغرفة، إنه الصوت الذي يتعمد إثارتها واستفزازها: صوفي أين أنت أيتها الحالمة.

أما زلت تقصين رواياتك الخيالية، لقد آن لك أن تكفي عن ذلك.

أخرجها صوت أختها الساخط من حلم اليقظة الذي كانت تسبح فيه، فاتجهت نحوها مركزة عيناها العسليتان على الفتاة الشابة التي تقف على مدخل الغرفة.

هزت شقيقتها التي تصغرها بسنتين رأسها وهي تبدو متعجلة ومرحة في نفس الوقت.

- أرى أنك بدأت من جديد.

- ماذا إذن.. هل ستتشاجر مجددا؟.

- لا تتظاهري بالبراءة معي، لقد كنت بعيدة عنا بعدة فراسخ كنت تحلمين وأنت مستيقظة، وأظن أن الإجابة عند عليسة. نهضت الوصيفة وهي تقول: كل شيء على ما يرام يا سيدتي.

- أبدا أنا..آه..كنت أفكر في الثوب الذي أرتديه، وقد اعتمدت على عليسة في ذلك.

لكي تضيف إلى كذبتها بعض الصدقية، لملمت ثيابها وأغراضها المبعثرة أمامها وقد احمر خداها.

لاحقتها شقيقتها بنظراتها، ثم تركت نفسها تسقط على أحد المقاعد الوثيرة في غرفتها ذات القماش الوردي.

- لقد احمر خداك على غير المعتاد، هيا قصي علينا واعتبريني لم أتدخل بينكما، بما أنه حلم جميل.

- هل تمزحين، لم أكن أفكر إلا في هذا الرنين الآتي من جهة المعسكر بالقرب من البحر، ما رأيك في قوارير العطر هذه؟ لقد أحضروها خصيصا لي من صيدون.

- هل جاءنا أي زائر من هناك، كم أتمنى العودة إلى تلك المدينة الحجرية، ولكن يبدو أنك تفكرين دائما في الحكايات والأساطير، عودي ولو قليلا إلى عالم الواقع.

- عالم الواقع بمفهومك غير جذاب، لا أحبه ولا يغريني النزول إليه، ولكن أي ضرر في التفكير بالحب؟

-لا شيء، لا أحب الزواج وليست تغريني فكرة الارتباط برجل، لكنني لم أنتقد المتعة واللذة الجسدية، فجميعنا نحتاج إلى تلك الرغبة.

ارتجفت صوفو من تحول الحديث نحو الرغبة، وظهرت عليها علامات الضيق والانزعاج، وقالت محذرة:

- وأنا مثلك، لكن تحدثي بصوت منخفض، قد تسمعنا الوالدة، وقد يصل صوتك إلى جميع الخدم. قالت دون أن تضع في حسبانها نظرات أختها الثاقبة.

- وحينذاك؟ أنت الوحيدة التي يحق لها أن تتكلم في الحب والعشق، ثم تحرمون ذلك علينا نحن الفتيات الصغيرات، ولكن ألا تشعرين بالعزلة وأنت بلا صديق أو عشيق؟. قالت وهي تكز على أسنانها: اصمتي أيتها الفاجرة، كم أنت جريئة ووقحة.

ضحكت شقيقتها من ردة فعلها، وقالت: آه ما أجمل العشق، حتى شقاوته ممتعة.

تذمرت صوفونيسبا وشعرت بالضيق من هذا الحصار الذي تفرضه عليها، وكأنها تستفزها للبوح بكل شيء، فقالت متذمرة:

- أريدك أن تنصرفي الآن، لقد شبعت من ثرثرتك.

كانت تعرف ما سيحدث، مهما طالت محادثتهما فإنها ستنتهي بهما إلى مناقشة حياتها العاطفية، وسوف يحاولون التأثير عليها، لكي تختار من يريدونه ويرضون عنه، بغض النظر عن رغباتها ومشاعرها.

وكانت محقة في هواجسها، مع أنها هي أيضا شاركت في خيارها واختيارها، وتتحمل لوحدها معظم مسؤولية ما سيحدث لاحقا، فقد تحدث ماسينيسا الأمير مع والدها، وأصبحت مسألة خطبتها والبدء في إعداد مراسيم الزواج مسألة وقت، وقد جرى كل شيء بصمت وهدوء، احتراما لرغبة والدها الذي كان يفضل أن تكون الفرحة والبهجة مع انتصار زعيمهم في القتال ضد الرومان.

جريمة بلا دماء

كان لكل ابنة من بنات صدربعل ما يميزها، ويجعلها مرغوبة ومطلوبة من الرجال، وقد تميزت صوفونيسبا عن شقيقتها عشتريتم بأشياء كثيرة، واشتركن في الحسن والجمال، وكانت والدتها قد أخبرت زوجها أن صوفونيسبا لا تفكر في الزواج، وأنها تتوقع أن تتزوج عشتريتم قبلها، وعندما سألها عن سبب ذلك، قالت: إن ابنتك صوفو ترىٰ نفسها أكبر من جميع الرجال، من أين سنأتيها برجل ينال رضاها.

أجاب صدربعل زوجته: يبدو أنك يا عزيزتي لا تعرفين بناتك كما ينبغي.

-لم تقول ذلك، هل تخفي عني شيئا؟.

-إن ابنتك واقعة في هوىٰ الأمير المازيلي ماسينيسا، وقد خطبها مني رسميا، لكني آثرت عدم الإعلان عن ذلك بانتظار ما ستؤول إليه أحوالنا الحربية.

رفعت المرأة حاجبيها دهشة، وقالت: لقد أثلجت صدري بهذا الخبر، ولا أرىٰ أي مانع من الاحتفال بهذه المناسبة. نظر إلى زوجته مستنكرا وقال: مع غياب جميع قادتنا، ومع الأخبار السيئة التي يتواتر وصولها إلينا، ترغبين أن يقول الملأ إن صدربعل زوج ابنته وأعلنها فرحة في غياب كبارنا، لن يكون ذلك.

- كما تشاء، قالت: ولكن هل حددتما موعد الزواج؟.

- سلي ابنتك فكل شيء بيدها.

قالت المرأة والسعادة تغمر محياها: يا لفرحتي بعرائسي الجميلات، ويحق للأم أن تستبشر وتفرح، ولكن من يدري ما سيكون غدا؟.

فقد كان لكل ابنة من بناتها شخصيتها وفلسفتها في الحياة، كانت الاثنتان الكبريان جميلتين فاتنتين، لكن صوفو تميزت بشعرها الكستنائي الطويل اللامع، كان ناعما وجذابا عن شعر أختها، وكانت قسماتها مثيرة وجذابة، بينما قسمات أختها لطيفة ورقيقة، كانت عينا الشقيقتين عسليتين، لكن عيني الكبيرة ثائرة مثل البحر،

فيهن من الإغراء والفتنة ما يخلب لب العجائز قبل الشباب، بينما عينا الصغيرة هادئة حنونة.

وبينما كانت صوفو تختار ملابسها على غرار بنات الطبقة الراقية من جيلها، كانت شقيقتها عشتريتم تملأ خزانتها بملابس فاتنة، لقد كانت الصغيرة بمنطق شقيقتها مستهترة لا ضير عندها من بعض المتعة الفاسقة، كانتا شقيقتين متناقضتين في كثير من الصفات والأفعال، والأهم من كل ذلك أنهم كانوا يحضرون لتزويج الصغيرة من الأمير ماسين، الذي كان هو بدوره يعشق الكبيرة التي بادلته الحب بما هو أكبر وأعظم.

دخلت الوالدة على صوت ابنتيها فسألت:

- رأيتك صوفو ترسمين وتطرزين، أطلعيني على أعمالك، يبدو أنك تجهزين نفسك لمناسبة ما.

أجابتها وهي تتظاهر بعدم الفهم.

- أبدا يا أماه، كل شيء عادي ولا شيء مميز.

-كل شيء؟ أليس لديك ما تقولينه لأمك الحبيبة؟.

- بل لدي يا أماه، إني أحبك أكثر من ذي قبل.

- ضحكت المرأة ضحكة مبتذلة وقالت: تحبين من أنا؟

- همست لنفسها: إنها تعرف أقسم أنها تعلم، لقد أخبروها.

قالت الشقيقة الصغيرة: بل لديها من المشاريع ما سيجعل القصر يقف على قدم واحدة.

سألت الوالدة باهتمام: كيف ومتى وأين؟ هيا أسمعاني ما لديكما.

قالت: لا تهتمي يا أماه إنها تثرثر فقط.

ضحكت الصغيرة ومضت مسرعة خارج الغرفة.

أوضحت تنهيدة صوفو الطويلة اضطرابها أمام هذه النوعية من النقاشات لكن أحدا لم يعرها أي اهتمام.

كانت شقيقتها تنتقدها دوما، وتتهمها أنها تفضل الحلم على الحقيقة، وكانت تسمعها أحيانا بعضا من مغامراتها بغية إثارتها، لكنها خدعتهم جميعا، فما من عاشقة في قرطاج أعظم منها حبا ومتعة، ولكنها تعلمت وتعودت أن تحافظ على خصوصياتها، ولا تذيع أسرارها.

يقولون دوما إنني لا أحلم، يا للبلهاء، يتحدثون ويزعمون لكنهم لا يشعرون، وكانت أكثر من يعرف ذلك. إلا إذا كانت اللقاءات والخلوات خلف القصر وعلى شاطئ البحر الصخري مجرد أحلام لا تمت للواقع بصلة.

ضحكات عشتريتم كانت تستفزها، لكن لابد من الصبر. إنك حالمة أصيلة، تعيشين الحب كما تحلمين وتشتهين، عندما كنا صغيرتين كنت تتنكرين في زي الأميرة وأنا تابعتك وكنت تنتظرين الأمير الساحر، أتنتظرين أميرا آخر يا صوفي؟ متأسفة لأنني خيبت أملك، لكن هؤلاء الأمراء غير موجودين.

- أعلم هذا تماما، فهل لك أن توفري نصائحك الثمينة لغيري.

- أكتفي إذن برجل من الذين يطلبون ودك، فما أكثرهم. قالت بغضب: ولكن لم تحملين همي، أراك أصبحت وصية علي دون أن أدري، هل نصبوك مربية لي؟. أضافت شقيقتها متجاهلة أسئلتها، وهي تبتسم بخبث.

يا لك من امرأة حمقاء أو لعوب، الجميع يلعقون خطواتك، فهل عجزت عن الاختيار، لو أن النظرات التي تلاحقك تصنع ذلك معي، لكنت اليوم ملكة قرطاجنة المتوجة.

كانت هذه الجملة الأخيرة لترضي غرورها، وتقر بها عين أي فتاة توجه إليها، فليس منهن من تكره أن تكون ملكة جمال جنسها، غير أن صوفي لم تكن بحاجة لمن يؤكد جمالها وفتنتها، فقد كانت تعرف نفسها جيدا.

تساءلت عليسة الوصيفة التي حضرت جزءا من الحوار بهمس: كيف للأخت الصغرى أن تخاطب شقيقتها الكبرى بهذه الوقاحة، وقد تعمدت أن تصل كلماتها إلى أذني صوفو، فنظرت هذه إلى وصيفتها وكأنها تقول لها: لا تتدخلي فيما لا يعنيك فلن ينالك من ذلك إلا السوء والشر.. والحق لا أحد يدري لم كانت الحسناء القرطاجية تصنع هذا الغموض حول علاقتها بالضابط الأمير، وتلقي غلالة من الشك والريبة على تصرفاتها؟ لقد كانت لديها أسبابها لكنها آثرت أن تحتفظ بها لنفسها.

عادت صوفة إلى حلمها، وأشد ما كان يخيفها أن تعلم أختها بأمر هذا الحبيب، الذي تحسبه لها، أو هكذا أقنعوها دون أية أدلة وإشارات واضحة من أي منهما، فأعادتها ضربات قلبها الى أرض الواقع، لابد أن تضع نهاية لهذا الهذيان العاطفي، إنه خطأ أختها التي تحدثها دوما بحديثها عن العلاقات الجسدية العاصفة.

من العار ألا تعرف، ومن الجبن ألا أخبرها، هكذا قررت، وعلى هذا استقر رأيها، فلتكف الإثنتان عن الحلم والوهم، فالضابط النوميدي والأمير كما كانت تسخر من أحلامها، لن يكون إلا لها وحدها، ولن تكون إلا له، وقد أقسمت على ذلك بأيمان غليظة، فلم تدع ربا تعبده، أو قد سمعت به، إلا وأقسمت له به..

غير أن كبار القصر فضلوا التكتم على الأمر، وكأنهم مقدمون على ارتكاب جريمة، لكن في مثل هذا القصر لا مكان للأسرار، فقد أخذ الجميع يتحدثون همسا عن حب سيدتهم للأمير النوميدي، ويتوقعون نهاية سعيدة لهذا الحب.

ولكن كم يمكن للبشر أن يتحكموا بأقدارهم، وإن استطعوا ذلك، فمن يمتلك أن يغير مسيرة القضاء؟. صوفونيسبا غيرت قدرها وأقدار غيرها، فلولاها كما يعتقد ماسينيسا لم يكن لأقدام الرومان أن تطأ أرض شمال إفريقية.

والأهم لبقيت قرطاجنة على قيد الحياة، ومن يدري كيف كان سيكون وجه المستقبل؟.

ولكن.. ساعة تتحول ردة الفعل إلى فعل عاصف، وهي هنا تفوق الفعل الأصلي في القوة والتأثير والأثر، لا يمكن لحكيم أن يتنبأ بما سيكون، وما يحمله المستقبل من مفاجآت.

غير أن الحليم العاقل هو من يضبط نفسه، ويسيطر على انفعالاته، ويعمل جاهدا لمصلحة جميع أبناء قومه وجيرانه أيضا، وفي تلك الفترة العصيبة لم يكن ماسينيسا يفكر ولم يكن يستخدم قدراته العقلية الخارقة، وإنما كان ينتقم لقلبه الجريح، ويثأر لكرامته المهدورة، وإن فكر ففي أفضل وسيلة وأنجعها للانتقام، وإن وجد نفسه مضطرا للابتكار، فبم يخدم مصلحته ويحقق أمانيه بأسرع وقت.

وقد قال ذات يوم، وهو يعرف أنه كاذب محتال، إنه يتمنى أن يجتمع بسيبيون كورنيلوس إيمليانوس وأن يصافحه يدا بيد، ولم تكن تلك أمنيته أبدا، وليس هو من يرغب في مثلها، وإنما كان زاهدا في علاقاته مع الرومان أكثر بكثير مما كان عليه الحال مع قرطاجنة، على الأقل ألم يختر أبجدية قرطاج لكتابة لهجته الأمازيغية، ثم إنه كان مولعا بكل ما هو فينيقي وكنعاني، فكيف لمن هذا حاله أن يعجب بروما ويفتتن بها؟.

أما لماذا قال كلمته تلك، فإن جميع ضباطه وجنوده يعرفون السبب، لقد أراد أن يستميل قلوبهم لما هو مقدم عليه من تغيير تحالفاته، فليس سهلا كما أسر ذات ليلة لصديقه أماياس أن يقاتل صباحا مع هانيبعل ثم يمسي وهو يقاتل إلى جانب سيبيون الإفريقي.

كان لابد من وسيلة يقنع بها تلك النخبة العسكرية النوميدية التي ظلت محافظة على ولائها له، لأنه ساعة يخسرهم فليس له إلا الهجرة والهرب أو الانتحار، وليس هو من يتخلى عن رجاله، أو يرمي بهم إلى التهلكة.

وعندما سألته عشيقته أريناس، ذات ليلة عن جيرانه الروماني قال مستهجنا سؤالها: متى كان الرومان جيراننا يا امرأة.

كان رأسه في حضنها، تداعب خصلات شعره، وتمسح على رأسه وتفرك جبهته براحتها الطرية الناعمة، وقد تكفلت المرأة بالتسرية عنه، لكي ينسى متاعبه وأحزانه، فقد انغمس بعد انتصاراته المتلاحقة في حياة اللذة والمتعة، عله ينسى ما كان من غدر الأحباب، فلما سمعت إجابته توقفت يدها بين خصلات شعره وقالت: كنت أحسب أنهم بالقرب منا يا مولاي. قال متهكما: بل يفرقنا الأرباب ويفصل البحر بيننا.

إذن لم يكن يعترف بقربهم منه، ولا بمودته لهم، ولكنها المصلحة، لذلك قرص أريناس فخذها وقال ضاحكا، أنت من هذه الساعة وردتي الحرة.

قالت بدلع وهي تتصنع الألم: ألست حرة يا مولاي؟. قال: بل أنت تليلي المزهرة، أي الحرية المتوهجة، صمت قليلا ثم تابع: لا يعني هذا أن اسمك

الوردي لا يعجبني بل أحبك أن تكوني في عيني مثالا للمرأة الحرة التي تعشق وتشتري ولا تكره وتبيع.

-أحب اسم تليلي على أية حال، إنه اسم جميل، وأنا حرة في عشقك يا مولاي.

حقا لم يكن الرومان جيراننا، ولا يحلمون مثلنا، لقد كان هذا رأي الملك الراحل غايا وزوجته، وهما والدا ماسينيسا.

وعندما سألوا الملك المغدور صيفاقس عن الرومان، قال: وأية رابطة تجمعنا مع هؤلاء الوحوش؟ ألم تعلموا أن الغاليين بما فيهم من بدائية وتوحش وهمجية أكثر رحمة وأصدق عاطفة وأرحم قلوبا من الرومان.

وكان الغاليون، الفرنسيون حاليا، قد تحالفوا مع هانيبعل ضد الرومان وأوقعوا فيهم هزائم مريرة، وقد عرف عن هؤلاء همجيتهم وتوحشهم، فقد كانوا يأكلون لحم أعدائهم نيئا دون أن يطبخوه.

فسألوه مجددا: ولكن أيها الملك المبجل، لقد قاتلت يوما إلى جانب الرومان؟.

احمر وجه صيفاقس لحظتها، فقال وهو يشيح بوجهه عن سائله: وهل تعتقدون أن الملوك آلهة لا يخطئون، لكل منا هفواته وكبواته وأخطائه، لكن المهم أن نصحح مسيرتنا ونعدل من قناعاتنا.

وكذلك كانت صوفونيسبا.

وغيرها يرى ومنهن والدة ماسينيسا، أن ابنها يتحمل لوحده وزر دخول الفساد الروماني إلى قلوب الأمازيغ، وعندما اشتد الحوار ذات ليلة مع ابنها قالت: هل تظن أن الرومان سيكتفون بهزيمة هانيبعل، ويخرجون من بلادنا دون ثمن وبلا مقابل.

قال: لقد كانوا يسعون لحماية ظهورهم من جهة البحر، وقد تلاشى ذلك الخطر الآن، فلنعمل معهم صداقة، لخيرنا وخيرهم.

قالت وهي تصطنع ضحكة هازئة: أصدقاء للرومان، أستحلفك بالرب آمون، أن تسمي لي صديقا واحدا للرومان من جيرانهم وراء البحر؟ صمتت ثم قالت: ليس لهؤلاء القوم إلا صديقا واحدا.

سأل ببلاهة: من؟.

قالت: أنفسهم، حتى أنفسهم أظنهم أحيانا يكرهونها، فلنقل إن السيف صديقهم، ولا يجيدون إلا حياة القمل والعناكب.

ساد الصمت بين الملك وأمه، ثم قالت بعد فترة وقد اكتسى وجهها ملامح الجد والصرامة: أخبرتني جدتي يوما أن أصل الرومان من الذئاب، لقد كانوا ذئابا ثم تحولوا مع الوقت إلى ما تراهم عليه اليوم، ويقولون أيضا إن القمل خرج أول مرة من روما.

يا لهؤلاء القوم كم أمقتهم، لقد كان والدك الراحل يشاركني نفس الشعور وأكثر.

ضحك ماسينيسا وضحك وطفق يضحك دون توقف، ثم أمسك بكتفي أمه وقال وهو ما يزال يضحك: حفظتك الآلهة كم أنت رائعة ومسلية يا أماه، لست أدري ماذا كنت سأصنع من دونك.

قد يكون كلام الجدة صحيحا، قال وهو يضع يديه على خاصرته، فقد سمعت الرومان يعوون ليلا كالذئاب، وشاهدت لأحدهم ذيلا كذيل الذئب، قال ذلك واشتد ضحكه حتى أصبح كالضجيج، فابتسمت

الملكة الأم لسعادة ولدها رغم امتعاضها في البداية من سخريته، كان من الصعب في تلك الأيام رؤيته يضحك بفرح كالأطفال، فقد كان الجرح غضا.

ثم قال وهو يغالب انفعالاته وسعادته: وماذا عن قرطاجنة الآثمة يا أماه؟.. هل ترينهم أكثر رحمة ووفاء وإخلاصا من روما؟.

قالت بتهتك واستهتار: هاأنت تعود إلى مأساتك، وتعتبر نفسك محور كل شيء، وهذا ليس بالحكم العادل. هز رأسه موافقا، وقال بحسرة: نعم هي مأساتي يا أماه لقد أحسنت الوصف تماما.

قد يحيي الحب صاحبه، فيعيش بسعادة وهناء، أو يقتله ويدفعه نحو الجنون، وعلى أقل تقدير قد ينغص عليه حياته ويترك فيه ندبة لا يقدر الزمن على محوها، فكيف كان حال ماسينيسا مع حبه، الذي غيّر وبدل تحالفاته من أجله، بل وغير وجه منطقة الشمال الإفريقي؟.

من حسن حظه أن الأقدار كانت معه وساعدته، فقد وجد فرسانا على استعداد لصنع أي شيء إن أمرهم، ووجد شعبا مطيعا ووفيا لم يبخل على مليكه بالدعم

والمساندة، فقد حرموا أنفسهم نعمة الأمن والطمأنينة، وإن مؤقتا، بهدف إسعاد مليكهم، وتلبية رغباته، التي قال عنها من يسمون أنفسهم بالعقلاء، مغامرات ملك شاب من أجل حب أحمق، وقالوا: هل نحارب بسبب طيش الشباب، حتى لو كان الشاب ملكا؟.

هؤلاء لم يسعدهم تحالف ماسينيسا مع الرومان، ولم يرضهم هزيمة قرطاجنة، فقرروا ذات يوم أن يغتالوا ماسينيسا ويتخلصوا من نزواته، وأعدوا لذلك خطة محكمة، بأن زرعوا في قصره واحدا منهم، تولى أن يسمم الملك بواسطة منديل، وأقسموا جميعا باسم ربهم الذي يقدسونه "غورزيل" المجسد برأس ثور، وهو عندهم ابن وحي آمون، أن لا ينكثوا ولا يتقاعسوا حتى يتحقق لهم ما أرادوه.

ذلك هو التحدي الذي واجهه ماسينيسا، ومن أطراف متعددة، وكرس حياته الطويلة من أجل وطنه، في حين كان ينتقم من الخيانة والغدر.

مفاجأة وأقدار

شعرت صوفو الحسناء بحاجة ماسة إلى الراحة، فقد أرهقها التفكير في شؤون قلبها، وما يمليه عليها عقلها من واجبات، فسارعت إلى قصر والدها لكي تنال ببعض الراحة والهدوء، وخاصة في ليلة كهذه كثر فيها الخطاب وقل فيها الأحباب، أو يكاد الحب فيها أن ينتحر ويموت كمدا.

كانت تسعى نحو راحة النفس قبل راحة البدن، وقد شعرت اليوم بإرهاق وتعب لم تعهدهما سابقا، وكأنها كانت تحرث طيلة النهار دون توقف، وعندما استلقت على سريرها، انبعثت أصوات غاضبة وفوضى وصياح، جعلها تجفل وترتعد من الخوف، فما الذي حصل ليزيدها حزنا وهما إلى همومها؟.

تبينت من اختلاط الأصوات أن هناك طارئ حدث في البيت، وأن القصر تعرض لعملية اجتياح وغزو، فهل

وصل الرومان دون أن تدري، من غير المعقول ذلك، ثم سمعت صوتا حادا يقول، اطردوه أو اقتلوه لا أريد أن أسمع صوته أبدا، فمن يكون هذا المجرم الذي يستحق كل هذا العقاب، وأذهب عنها راحة البال.

تواصلت الفوضى وتعاظمت، كأن أهل القصر في حالة حرب أو رحيل، فتساءلت بصوت مرتفع عن أسباب هذه الضجة غير المعتادة، وقد شاركت أصوات الخدم في زيادة توترها، بعدما أحدث هؤلاء ضجة لا يمكن فهمها، فقالت لنفسها: جئت للراحة فتوترت أعصابي، ثم فركت جبهتها بيديها قائلة: كم أحتاج للراحة والسكينة، وهي محقة في رغبتها، فقد كانت بحاجة للتفكير واتخاذ القرار الملائم والمناسب، فجاءت وصيفتها على غير عادتها وقالت:

- كنت أحب مساعدتك يا مولاتي لكن كما ترين، إن سيدة القصر متطيرة من صوت البوم، وقد أمرت بإحداث هذه الضجة لكي تنفره وتدفعه للطيران والرحيل.

كزت على أسنانها كما كانت تفعل عندما ينتابها الغضب فجأة، وقالت هامسة يا لأمي الساذجة. فهي لا ترى الخطر إلا في بوم مسكين يتربص بفأر أو أفعى. ويغيب عن أنظارها كل هذه الأفاعي التي حولنا. الرومان قطعوا البحر ووصلوا إلى ضفافهم، وهزيمة عمها هانيبعل باتت أكيدة، وإن لم تحدث معجزة فلن يتمكن أحد من إنقاذهم، ثم ينشغل هؤلاء الحمقى في بوم وقف على الشجرة، وأمها تستنفر الخدم لكي يطردوا طائرا لا يملك من أمر نفسه شيئا، ومع ذلك، لن يطير هذا البوم البائس من على الشجرة بناء على طلبها كعصفور يتيم.

جاءت عشتريتم إلى أختها وجلست ملتصقة بها، وقالت وهي تضع رأسها على كتف شقيقتها:

-لا تنشغلي بأمي كثيرا فأنت تعرفين طباعها، وعلى أية حال، ليس لنا نحن النسوة الصغار إلا مطاردة الرجال، ولندع العجائز يطاردن البوم والغربان.

لكزت صوفو شقيقتها بخاصرتها، وقالت وهي تبتسم: لا تقولي ذلك عن أمنا، حتى هي لم تسلم من سلاطة لسانك.

قالت: دعينا من أمنا وبومها، لقد سئمت الحياة في هذا المنزل، وأظنك تشاطريني نفس الإحساس صمتت قليلا ثم قالت: هل تنكرين أن الرجال المميزون يصعب العثور عليهم، ولا أريد أن أبحث عنهم، أريدهم أن يكتشفوني، قالت ذلك كأنها توحي إليها بضرورة البحث عن حبيب لا تعرفه.

أجابت وهي تمد ساقيها وتمسد على فخذها: أما أنا فقد انتهيت من عصر الاكتشافات، هذا إن استحق الموضوع كلمة اكتشاف، وإنما هو يا شقيقتي الصغيرة الوقوع في الحب، وقريبا ستكون أختك المعقدة المتكبرة عروسا.

- هل أنت جادة في قولك.. متى حصل ذلك.. يبدو أن المياه تسير من تحتي دون أن أشعر؟.

- وهل تشعرين بالبلل، سألت صوفو وهي تبتسم.

- لقد سمعت همسا عما تزعمين، لكني قلت في نفسي إنها عادة الخدم، إذن فأنت على وشك الزواج،

بعدما وقعت في العشق، قالت ذلك وهي تعانق شقيقتها وتقبلها بعنف، يا لك من خبيثة ماكرة.

- علينا أن نجد لك أنت أيضا عريسا يليق بك، تستحقين أفضل شباب قرطاج.

- تقصدين ليس كأميرك النوميدي، يكفيني نصف أو ربع أمير.

- يا لك من وقحة وطماعة، ثم تبادلتا ضحكة مثيرة.

ساد الصمت بين الأختين، فقطعته صوفو بقولها: حسنا لنبحث عن شخص قريب منا، أليس في العائلة من يستحق، فلدينا منْ الجيران الأقرباء من لديهم أفضل الامكانات والامتيازات؟.

كانت عشتريتم ساهمة وهي منشغلة في تنظيف قارورة عطر فانتبهت لهذا الاقتراح الغريب وقالت:

- من تقصدين؟.

- كم عدد العزاب الذين يعيشون بجوارنا؟ إن الشاب الرياضي الضخم ذو الكتفين العريضين يناسبك تماما.

- تقصدين التاجر داغون؟

كررت العبارة على نفس طريقة أختها.

- التاجر داغون، ومن غيره، لا تتظاهري بالبراءة، لقد لاحظت نظراته إليك، يكاد يلتهمك.

وضعت عشتريتم قارورة العطر بضيق، وأرجعت خصلة شعرها للوراء.

لقد تركته لوصيفتك يا عزيزتي، وغدا ستعرفين من سيكون خطيبي.

- إذن فقد اخترت وانتهى الأمر، فلم تعذبيني معك، لكزتها ثم رفستها بقدمها، فانكشف ثوبها عن ساقين بيضاوين ناعمين، ليس أجمل من أعلى فخذيها إلا دقة ساقها وقدمها الصغيرة بأصابعها الدقيقة المحناة المعطرة.

لقد أحبت مثل أختها، لكن حبها الخيالي كان مقارنة بها أكثر من عادي، أما صوفو الفاتنة فقد أغرمت برجل يعشق كل ذرة فيها وشعرة فيها، وها هي تتخذه خطيبا وكانت تستعد للزواج منه، لكنها في النهاية اختارت رجلا آخر، هو ملك بدوره يكبرها سنا وخبرة وتجارب، وقد فعلت كل ذلك لأن ما يسمونه المصلحة العامة كانت تقتضي أن تصنع، كما قال لها الجميع، وكما اقترحت هي أيضا، ولتذهب هي وسعادتها إلى الجحيم.

لقد تلاقت مع والديها وكبار أفراد عائلتها في أهمية فسخ خطوبتها من ماسينيسا، وأن تتزوج من الملك المازيسيلي صيفاقس، لكن أحدا منهم لم يقل لصاحبه ما يخفيه هذا التحول، وما سيترتب عليه من آثار، لأنهم استهانوا بخطيب ابنتهم الأمير، ولم يقدروه كما ينبغي، وكانت الكلمة الوحيدة التي قالتها الأم، لم نر مذ عرفناه أي خير، ثم إنه لا حول له ولا قوة، فسرعان ما سيقتل وتؤول مملكة والده إلينا، ثم تابعت وهي تزم شفتيها: إنه حتى لا يستحق صفة أمير.

شعرت صوفونيسبا بالحرج والضيق، وتوترت أعصابها ولولا احترامها لوالديها لانفجرت في وجه أمها، فقالت وهي ترتعش من الغضب والتوتر: لا داعي لكل هذا التجريح يا أماه، لا يعني زواجي من رجل آخر أن خطيبي السابق لا يستحق شيئا، ولكن لم يتح لكم أن تعرفوه جيدا كما عرفته.

قالت أمها بدهشة: لم نجبرك على التخلي عنه، بل أنت من أصر على اقتراح عمك، فلا تحملينا مسؤولية تعاستك.

- لست تعسة ولا نادمة، وإنما كل ما في الأمر أنه لا ينبغي الإساءة لمن أحببناهم يوما.

- قال عمها: لقد أكثرتما من الجدال دونما فائدة، فقد عزمنا أمرنا وانتهينا من الماضي.

كانت شقيقتها عشتريتم تستمع لما يجري في الردهة الكبيرة ذات الأثاث الخشبي الفخم، فأدهشها موقف أختها واستسلامها لما تمليه مصلحتهم العامة، فقالت لها بمجرد أن انفض المجلس، يا لك من حمقاء غبية، تبيعين قلبك من أجل السيوف.

- هزت كتفيها غير مبالية وقالت: وما أدراك أنت؟.

- على الأقل أخبريه أنك فسخت خطبتك منه، ولا تجعليه يعتقد أنك زوجته ليراك لاحقا زوجة رجل آخر.

- لقد انتهينا من هذا الحديث، ومن يعلم هل هو على قيد الحياة أو التقمته السيوف؟.

- نظرت إلى أختها كأنها تتعرف عليها للمرة الأولى وقالت يا لعهر النساء وفجورهن، لو لم أكن امرأة

لقلت، لا تبالي الواحدة منا في اسم الرجل الذي يقعد بين فخذيها.

فلما قالت ذلك، تناولتها صوفونيسبا بصفعة قوية طار لها قرطها، وطرحتها أرضا، ثم قالت وقد احمر وجهها والتمع الشرر في عينيها: حتى أنت يا عضاءة ترغبين في تعليمي ما يجب وما لا يجب.

توتر جو القصر بعد هذه الحادثة، وكان معظم من في القصر يتهامسون حول هذا الحدث الطارئ والمثير.

وما يدهش في موقف صوفو وأهلها أنهم اعتقدوا أن مصاهرتهم للملك الجديد سوف تزيدهم قوة ومنعة في وجه الرومان، وخاصة بعدما نجح هؤلاء في نقل الحرب إلى الضفة الأخرى من البحر، وذلك من قصر نظرهم وضحالة تفكيرهم، فليس أسهل من شراء العداوات، وما أصعب أن تكتسب رجلا يصبح بعدها صديقا وحليفا لك، وهم في صنيعهم هذا اشتروا عداوة جيرانهم جميعا، وأكثر من ذلك أنهم تنكروا لمواقفه وتضحياته معهم، بل وباعوا حبه ورغبته فيهم، فقد كان يحسب أنه منهم وأنهم منه، وعندما وصلت الأمور

ووضعت القضايا على المحك، اكتشفوا أن نسيبهم الموعود مجرد فارس صغير لا يستحق أن يعتد به، أو يتفاخرون بنسبه.

عندما وصلت أخبار هذه التحولات الكبرى إلى الملكة تيفاني أم ماسينيسا قالت: إن هؤلاء الحمقى باعوا القلوب الحارة ليشتروا مقابلها الحديد البارد، علينا أن نشكر الآلهة التي كشفت لنا معدنهم، يا لقرطاج المسكينة كيف أضحت في غياب سيدها.

قالت خادمتها مايا: أراك تتوجعين على هانيبعل يا مولاتي؟. قالت: ومن لا يتوجع ويتألم على هذا الرجل؟...لو قيد الحكم لي لأمرت بإيقاف هذه الحرب المجنونة، ولما سمحت للرومان بالوصول إلى بلادنا.

توجهت الملكة بسؤال إلى صبية غاية في الحسن كانت تجلس قبالتها: ما قولك يا ساليس فيما يجري، هل توافقينني الرأي بأن كل هذه الحرب بلا معنى وأنها جلبت علينا مصائب لا حصر لها؟.

ارتبكت الصبية قليلا، ثم قالت وهي تبلع ريقها: وهل تحمل الحروب أي خير يا مولاتي، قلة من يحاربون من أجل الخير.. ثم سألت بدورها أين هم هؤلاء القلة؟.

- صدقت يا ساليس، قلة من يقاتلون من أجل الخير، ولا شك أن ماسينيسا يقاتل من أجل ذلك.

لمعت عينا الحسناء لسماعها ذلك، فقد سرها كثيرا أن يتحول الحديث على الملك، فقالت مؤكدة كلام مليكتها: بالتأكيد لم يشترك مولانا الملك في هذه الحرب إلا لتحقيق الخير.

لم تكن ساليس أقل جمالا وفتنة من صوفونيسبا، وربما فاقتها روعة في طولها الفاره، فهي كالزرافة الحسناء التي يفتخر أي رجل بالسير معها أو مجالستها، كانت تضج أنوثة وبهجة، بشفتيها المكتنزتين قليلا كحبتي فراولة أخذت وقتها حتى طابت ونضجت، ورقبتها الطويلة العاجية وجيدها المثير، أما أصابع يديها فدقيقة تميل إلى الطول مع رقة وخداج في ملمسها، وعندما تتحدث يحلو لمستمعها الإصغاء لرنة مميزة في صوتها، كان فيه بحة وإثارة لا يمتلك الشاعر إلا أن

يرشقها بقصيدة تشعل جمر الكلمات، وهي في الوقت نفسه إحدىٰ قريبات الملكة البعيدات لجهة أبيها، وقد سرها أن تقيم معها فتسري عنها، وتساعدها في بعض أمورها النسوية، وخاصة أن الفتاة كانت تجيد اليونانية والقبطية، وتعزف علىٰ القيثارة بمهارة ورقة.

لم يخطر في بال الملكة أن تنشأ أية علاقة غرامية بين ابنها وقريبتها الحسناء، علىٰ الأقل لم تخطط لذلك ولم تفكر به، فقد كانت تعرف أن الملك انصرف عن النساء وانشغل عنهن بتحصيل العلم والمعرفة، مع مشاغله الحربية والتنظيمية الأخرىٰ، وأما أهم أولوياته فكانت إلىٰ جانب التوجه نحو قرطاج ومحاصرتها، هو تخليص الأميرة من السبي، وكان علىٰ استعداد لأن يفسد علاقته مع الرومان من أجل هذا الهدف، مع ثقته الكاملة أنه مهما صنع فإن الرومان سيتمسكون به لحاجتهم الماسة إليه، فلن يجدوا حليفا يعينهم في هذه الأرض الغريبة مثله بما يتمتع من صفات عديدة، إضافة إلىٰ خبرته القتالية في أرض يعرفها، وأهلها يدينون له بالولاء.

لقد كان يمتلك خيارات عديدة للحركة والمناورة والخداع، في الأثناء انشغلت الملكة بأمر كانت قد نسيته تماما، وقد جاء الوقت لكي تكشف عنه وتؤكده، خاصة بعدما شككت معظم القوى المحلية من عروش وعشائر وقبائل وأعيان بأحقية ماسينيسا في الحكم، وكان معظمهم قد حسم أمره ووقف إلى جانب صيفاقس وحليفته قرطاجنة التي انتزعت معظم أراضي مملكة نوميديا الشرقية وصادرتها، وتبرعت بجزء آخر منها إلى حليفهم ونسيبهم الملك الجديد، وبعد هزيمة صيفاقس المنكرة ووقوعه في الأسر وإرساله مكبلا إلى روما، قام الرومان بتعيين ابنه الضعيف ملكا، فيما بدأ ماسينيسا باستعادة سيطرته وسطوته على الأراضي والقبائل معا، ورغم مواقفهم العدائية تجاهه إلا أنه لم يتعامل معهم بنفسية المنتصر المنتقم، فلا جدوى من اعتماد هذا الأسلوب، ومن أراد أن يبني عليه أن يتجاوز عن أخطاء الغير كما كان يقول، وهو الذي وضع نصب عينيه توحيد نوميديا وتطويرها.

كانت الملكة تدبر أمرا مهما وملحا، وخاصة أن الوقت لم يكن في مصلحتها، فكلما تأخرت في التحرك أثر ذلك على مستقبل المملكة، ورأت أخيرا أنها تستطيع أن تفعل شيئا، فلا يعقل أن تبقى مكتوفة الأيدي وهي الملكة الأم.

أمرت خادمتها قائلة: أرسلي وراء العجوز ماتيا أحتاجها في القصر فورا، ذهبت وصيفتها وخادمتها مايا تجري وكانت طويلة جسيمة ممتلئة، جميلة بيضاء ذات شعر أسود طويل يصل حتى خصرها، وامتازت بإليتها الكبيرة التي تهتز وراءها لكبرها وليونتها، وكان يحلو لماسينيسا أن يصفعها على مؤخرتها، فتذهب مايا إلى سيدتها الملكة شاكية باكية، فتطيب من خاطرها ثم تمازحها قائلة: خففي قليلا من كبرها، فربما يكف عنك قليلا.

كانت تبتسم بخجل، وهي تعلم أن نصف إثارتها في شكلها وضخامتها، وكان الأمير الشاب يشتهيها، لكنه لم يقربها احتراما وتبجيلا لوالدته.

قبل أن تذهب مايا مهرولة كانت رأت سيدتها تخرج منديلا حريريا أخضر موشى بأزهار حمراء، وأخرجت معه قطعة جلدية بيضاء عليها أشياء تشبه

الكتابة، وكانت تتمعن في القطعة الجلدية بحرص واهتمام بالغين، كانت تحتفظ بهذه الأشياء في علبة جواهرها، فلما سألتها عن أهمية هذه الأشياء، أجابت: هذا ميراث عائلي يا عزيزتي، وأخشى عليك منه.

أثارت كلماتها فضول الشابة الحسناء ساليس، ولم تترك لها الملكة فرصة للتخمين والتحزير، وإنما اقتربت منها، وقالت لها كلمات في أذنها تتعلق بالقطعة الجلدية والمنديل، وكانت الصبية تهز رأسها موافقة.

لم تخبر الملكة ضيفتها التي ستصبح فيما بعد الزوجة الأثيرة عند الملك ماسينيسا، ويفضلها على بقية نسائه، فأثار وجودها ثورة بين نساء القصر، وظلت ذكراها الجميلة خالدة في قلبه، بعدما توفيت وهي تضع مولودها الأول ماسيبسا، وقد فضلت الملكة تيفاني أن تجربها أولا وتختبرها فمن يدري إلى أين ومتى سينتهي هذا النزاع القائم، لقد أخبرتها عن شيء عزيز يخص عائلة الملك، وهي وثيقة كان شيوخ الأمازيغ وكبارهم قد كتبوها لجد ماسينيسا الثالث، وهو مازيغ بن مدرار أعطوه فيها عهدا على تمليكه عليهم هو وسلالته من

بعده، واشترطوا عليه أن يحكم فيهم بشريعتهم القبلية، وليس بشريعة قرطاج وقانونها، وحددوا فيها ما لهم وما عليهم، ثم زادوا شرطا رئيسيا يختص بخلع الملك والثورة عليه، فكتبوا "إذا خالف الملك ما اتفق عليه مشايخ المازيليين وأعيانهم فيحق لهم ساعتها خلعه وتنصيب ملك آخر مكانه على أن يكون من نفس عائلة مدرار وإن تعذر وجود ذكر بالغ راشد فتحكمهم أكبر النساء سنا وقدرا".

كتبوا كل ذلك بلغة قرطاج الفينيقية الكنعانية، فقال رجل طاعن في السن بعدما انتهوا من تعاهدهم: يا لكم من حمقى ومعتوهين، تكتبون بلغة قرطاج ثم ترفضون شرعتها.

رد أكبر الشيوخ سنا، وكان هذا قوي البنية مليح الوجه رغم تقدمه في العمر: سنكتب بلغة القرود إن اقتضى الأمر، ولكن لن نقبل بأن يحكمنا أي قرد.

قال الملك مازيغ الذي ملكوه أمرهم لحكمته ورجاحة عقله وطيب محتده: ليس للعدل والصدق هوية وعنوان، وقد تعاهدنا على العدل والصدق، وهذه

كلمات ليست رهنا بلسان معين، وإنما تحقيقها والعمل بها هو الأصل والأساس، ومن يحيد عن الصدق هلك، ومن يحيد عن العدل فسد.

استحسن القوم كلام ملكهم، فطلب منهم الملك أن يصنعوا أمارة وعلامة على اتفاقهم، فصنعوا منديلا أخضر موشى، ثم ختموا عليه بقطرة من دم كل رجل شارك في مجلسهم، وصنعوا منديلا آخر يشبه الأول، وكان مطرزا ومزخرفا بأشكال ورود تشبه قطرات دمهم على المنديل الأصل، وكان هذا المنديل في جيب الملك، يحتفظ به ويسلمه مع شبيهه لمن يأتي من بعده.

بعدما انتهوا من طقوسهم، قدموا القرابين والذبائح للرب إنليل، ثم قاموا وهم يقولون "أوصوا على ما اتفقنا عليه أبناءكم".

كانت بحوزة الملكة المنديل الموشى الثاني، أما المنديل الأصلي فقد اختفى، وإن ضاعت هذه الأمارة اختلف الناس على صدقية ملكهم، وكانت شديدة الحرص على الاجتماع بولدها الملك لتبحث معه قضية المنديل المفقود.

وقد تعارفوا عندما يجري تنصيب الملك الجديد أن يخرج الوثيقة الجلدية والمنديل، لتأكيد أحقيته وصدقيته، ولم يتسن لماسينيسا أن يصنع ذلك بسبب ظروف الحرب التي كانوا يخوضونها.

عرفت ساليس نصف الحقيقة، فشاهدت المنديل والوثيقة، لكنها لا تعرف عن أمر المنديل الثاني شيئا، وكان قد ساد الصمت بين المرأتين، فما كان من الملكة إلا أن قالت مبتهجة، أو هي تعمدت أن تبدو سعيدة، الحلي تليق بكن أنتن الفتيات، وخاصة للحسناوات مثلك.

- مولاتي هي الأجمل والأكثر رقة، قالت ساليس ذلك وهي ترجو أن تنال حظوة حقيقية عند الملكة.

والحق كانت الملكة بحاجة لمن يؤنس وحدتها، وتشاركه بعض همومها، فقد أتعبتها الوحشة وفراق الأحبة . ثم قالت: أترين هذه الحلي الذهبية، لم تعد تهمني في شيء، لقد تجاوزني الزمن، ولم تعد عندي أية رغبة في لبسها. قالت الحسناء وقد زادها توردها بهاء وجمالا فكانت كالقمر الأحمر: ما زلت شابة ورائعة الحسن يا مولاتي، فلا تغمطي نفسك حقها.

- ولكن لمن تتزين المرأة وتتجمل يا ساليس؟

أرسلت بعدها آهة، ثم عدلت من جلستها. ابتسمت وهي تقول: لرجل حبيب أو خطيب، صمتت قليلا ثم تداركت هفوتها متابعة، أو حتى لنفسها يا مولاتي.

- بعد الملك الراحل لم يعد عندي رغبة في أي شيء، ولا أعتقد أن الحلي ستزيدني شبابا وبهاء، خذيها فهي لك، ودفعت إليها بالصندوق الخشبي داكن اللون والموشى بالذهب من أطرافه، وتابعت: مثلك من يليق بها لبس الحلي، والتباهي بحسنها وشبابها.

- شكرا لك وألف شكر، هذا كثير يا مولاتي، يكفيني أن أكون جليستك وبقربك.

رفعت الملكة شعرها بكلتا يديها، وكانت تلبس ثوبا حريريا أزرق داكنا بدون أكمام، وتزين جيدها بعقد من المرجان، فكشفت عن يدين لم تعرفا الشقاوة يوما، كان إبطها أبيض ناصعا، ورسمت على وجهها ابتسامة ذات معنى، وقالت: وأنا أريدك أكثر من ذلك يا ساليس، على كل ليس لي غيرك أحدثها وأفضي إليها، فهل تجدين غضاضة في مجالستي.

- أبدا أبدا، بل إني سعيدة جدّا ولي من الشرف والكرامة مالا يوصف عندما أكون بقربك يا مولاتي.

- إيه يا صغيرتي، لقد كان والدك الراحل أكثر من أخ لوالدي الراحل، نعم تجمعهما قرابة ما، لكنه في الواقع كان مستشاره وعقله وعينه التي يرى بها.

صمتت المرأتان وهما تسمعان صوت مايا تتحدث مع العجوز ماتيا، التي جاءت مسرعة تلبية لطلب مولاتها.

دمعة ماسينيسا

كان أويزالس عم ماسينيسا وشقيق الملك الراحل غايا أكثر المحرجين مما حدث ويحدث، فقد ابتلي الرجل بالزواج من شقيقة القائد هانيبعل، وهذه المصاهرة أكدت القرابة بين العائلة الملكية النوميدية، والعائلة الأرستقراطية القرطاجية، وبخاصة أن قضاة قرطاج كانوا يباركون هذا الزواج، ويرون فيه تحالفا أبديا لا تنفصم عراه. ولكنها انفصمت وتقطعت بل وساءت كثيرا.

فقد قال الجميع بعدها، ليت الذي كان لم يكن أبدا.

لم يكن الملك ماسينيسا ليحزن أو يأسف كثيرا على حبه لو أنه انتهى بشكل طبيعي، كما تنتهي أية علاقة فاشلة بين متحابين، ولكن الذي أغاظه ومزق أعصابه الطريقة التي تم بها القضاء على حبه، دون أي اعتبار لمشاعره وشخصه، وهو المعتد كثيرا بنفسه، رغم تواضعه ودماثة أخلاقه كما يبدو لمن يجتمع به في الوهلة

الأولى، وكان دائما يتساءل مع نفسه عن سبب تفضيلهم صيفاقس عليه، هل لكونه ملكا أو طمعا في التحالف معه، فقد كان هو أيضا من الملوك وقد أثنى عليه هانيبعل شخصيا، واستبشر به خيرا.

عندما كان يصل إلى هذه المرحلة من الأسئلة كان يضرب الطاولة بقبضة يده ويصرخ قائلا: لماذا أهانوني واستقووا علي إلى هذه الدرجة؟. هل وجدوني سهلا لينا إلى هذا الحد؟. هل لأني مازيلي ونسيبهم المحترم من مازيسيليا؟.

إذن عليهم أن يعرفوا أي رجل خسروه، وأية حماقة عظيمة ارتكبوها. ثم رفع يده اليمنى نحو السماء مشيرا إلى حيث تشرق الشمس التي كان يحبها ويعبدها، أقسم ألا أرحم منهم أحدا، وأن أدمر مملكتهم ولا أبقي لهم أثرا.

أقسم أن لن يهنأوا بما أقدموا عليه من غدر وخيانة.

وصل صوته الغاضب إلى ثلة من الفرسان كانوا يتحلقون حول نار أشعلوها للطعام، كانوا يشوون فوقها ذكر ماعز صغير، إنهم يفضلون لحم الجدي كثيرا لأن زعيمهم وملكهم يحب لحمه.

خرج ماسينيسا من خيمته الملكية وهو ما يزال يقسم على أن يفعل ويصنع، ثم اختفى صوته تماما، وفجأة انبعث صوت أنثوي هادئ، فقال بلهجة حنونة: مولاي لا أحد يستحق كل هذا الغضب لا أحد.

قال: ولكن ثورتي وغضبي من أجل نفسي يا تامكازت، فهل ترينني أستحق ذلك؟.

- المعذرة يا مولاي، قالت، لم أقصد ذلك، وإنما على الذين تسببوا لك في كل هذا الألم.

- لقد آلموني جميعا..جميعا بلا استثناء، قال ذلك بصوت أجش فيه بحة غريبة، وتابع: حتى أمي العزيزة لم تسلم من شرورهم، فهل بعد ذلك يحق لي أن أغضب أو أغفر وأسامح؟.

- الطيبون دوما يصفحون، والمحبون دوما يعفون، وأنت من هؤلاء وهؤلاء يا مولاي.

لم يتمالك ماسينيسا نفسه عند سماع ذلك عن البكاء، والحق كان من الناس الذين تسبقهم دمعتهم في حالة الغضب والحزن، لكن دمعه يمتاز بالسخونة والحرارة، فيبكي حتى يشرق من الدموع، وهاهو قد

أجهش في البكاء، لقد أصابت فيه كلمات تامكازت موجعا، فتأوه من الألم وقال من خلال دموعه كلمات يصعب تسجيلها وحصرها.

كان مجروحا كأسد حر، ومكلوما كنمر عزيز، وصادقا كطعم العسل الجبلي، فمن يلومه إن هو بكى وبكى، ليس حزنا على نفسه أو ضعفا فيه، وإنما لأن الدموع تخفف في أحايين كثيرة من قسوة الحدث.

دخل خيمته، ثم أخرج من صدره منديلا أراد أن يمسح به وجهه، فلما هم أن يصنع، أعاد المنديل إلى حقيبة جلدية صفراء كان يخفيها تحت ملابسه، وهو يتمتم: ليس هذا المنديل على أية حال.

تناول إبريق ماء فخاري، فغسل وجهه، وصب ما تبقى من ماء بارد على رأسه، فعادت له حيويته وهدوءه، فيما تولت المرأة التي كانت في خدمته مهمة التخفيف عنه، ومسح بعض أحزانه ولو بمتع قصيرة عابرة.

تهامس الفرسان الذين كانوا حول النار فيما بينهم "أن ابتعدوا من هنا" فلا يليق بنا أن نستمع للملك أثناء خلوته، فابتعدوا وقد زادهم ما سمعوه وفاء وإخلاصا

ومحبة لقائدهم، فأحسوا أنه ينطق باسمهم وبما يشعرون به جميعا، ليس بعد الغدر من كلام يقال، إن كلمة الخديعة والغدر تكفي لوحدها لحمل معناها ودلالاتها، وإن كانت حقا لكافية. وكان من بين هؤلاء ثلاثة رجال تعاهدوا على حماية مليكهم وطاعته حتى الموت، وهم أوسمان وأزرو وثالثهم الشاب الوسيم يفاو، في الحقيقة ثلاثتهم كانوا شبابا يتمتعون بحيوية وفتوة يحسدون عليها إلى جانب وسامة جعلتهم محط أنظار كثير من النسوة.

وهم عندما صنعوا ذلك، أي أقاموا حلفهم وتعاهدوا، لم يخبروا ملكهم ماسينيسا بما اتفقوا عليه، وإنما أبقوا الأمر فيما بينهم فقط، لكنهم لم يتركوا الملك يغيب عن أعينهم قط، لقد كانوا يدركون مدى الخطر الذي يحيط به، وخاصة أنهم لم يكونوا يثقون بالرومان ويعتقدون أنهم سيغتالونه بمجرد أن يستقر لهم الأمر ويتمكنوا من القضاء على مقاومة غريمهم الملك صيفاقس، كان ذلك هاجسهم ومصدر انشغالهم منذ انتقال القتال إلى مناطقهم، وبعد تمكن الرومان من أسر صيفاقس، أخذوا زوجته الحسناء صوفونيسبا سبية، واحتفظوا بها في قصر على شاطئ البحر

في مدينة بالوبرس. كان قد أعده لها زوجها الملك هدية لزواجهما. ثم نقلوها بعد ذلك إلى منطقة إيوباليني بالقرب من وادي الصومام. وكانت القوات الرومانية قد تجمعت في تلك المنطقة. وهم يعتزمون التوجه نحو قرطاجنة بعد أن ينتزعوا أراضي نوميديا الشرقية من أيدي القرطاجيين. لإعادتها إلى الملك ماسنيسا وفق ما تعاهدوا عليه.

وكان ماسينيسا أثناءها قد عسكر مع قواته بالقرب من مدينة موسوني، وقد علم الفرسان الثلاثة بعزم نمرود على الذهاب إلى مدينة إيوباليني للاتصال بالأميرة السجينة ومحاولة تخليصها من الأسر.

سارع أصغر الفرسان الثلاثة عمرا، الشاب الوسيم يفاو إلى اللحاق بنمرود التابع، وكان قد اتفق مع صاحبيه على خطة لا يعلمها غيرهم، وقد انتقى لهذه المهمة حصانا أسود اللون لامعا، تزين نصف رأسه غرة بيضاء ناصعة، وهذا الحصان لا يصلح لشيء إلا للسباق، لذلك سموه "زرزر" لأنه كان يجري بسرعة غزال.

قطع يفاو الطريق على نمرود الذي جفل من رؤية هذا الفارس الملثم، وكاد يقذفه بحربة كانت إلى جنبه،

لولا أن عرف يفاو بنفسه، وكان نمرود يسوق عربة بحصانين قويين متينين، قد أعدها خصيصا للسبية التي تعهد بتخليصها، وكان يبدو فوق العربة كمارد عملاق يجلس على حجر صغير تجره قطتان، وذلك لضخامته وقوة جسده العملاق، ولو قيد له أن يمسك يفاو بقبضته فلن يفلته إلا وهو كالعجينة المختمرة، ولم يخف الرجل الضخم ضيقه وغضبه من متابعة الفارس يفاو له، حتى عندما أخبره أنه يسعى لنفس الهدف، قال: ومن طلب منك أو من غيرك المساعدة، لو أردتها لطلبتها من مولاي الملك.

- ولكن لابد أن تحتاج لمن يعينك في أشياء كثيرة غابت عنك.

- لم يغب عني شيئا، لقد رتبت كل شيء كما ينبغي ودرست جميع الاحتمالات، فلا ترهقني بثرثرتك، وعد من حيث أتيت.

كان يفاو فوق حصانه يسير إلى جانب العربة، فكاد أن يقع تحت عجلاتها، بسبب حركة غاضبة من محدثه، حولت من وجهة الحصانين، ثم أخذ نمرود يجلدهما بسوطه طالبا منهما السرعة. قال يفاو وقد أوشك صبره

وحيلته على النفاذ: لا تضرب الحصانين بهذه القسوة، وكف عن التصرف بهذه العداوة، فلو علم الملك بما تقوم به فلن يكون راض عنك أبدا.

ارتعد الضخم لذكر ماسينيسا، فهدأ من غضبه وثورته، وعاد للطلب من صاحبه بعد برهة من الصمت أن يرحل ويتركه وشأنه لكي ينفذ خطته.

قال يفاو متحايلا: لا بأس سوف أتركك وشأنك ولكن هل لنا أن نتحدث عن طبيعة خطتك، فإن رأيت أنك فعلا لا تحتاج لمساعدة فسوف أتركك وشأنك راجيا لك النجاح والتوفيق.

- وما هو المطلوب؟ قال وهو يمط شفتيه.

- أوقف عربتك حتى أربط حصاني بها، ثم نجلس معا ونتحدث، ولن أجعلك تتأخر عن مهمتك، فنواصل الحديث أثناء الطريق.

بالفعل، أوقف نمرود العربة، وقام يفاو بربط حصانه بمؤخرتها، وركبا معا، وقال نمرود في نفسه وهو يرجو أن تنتهي هذه المحنة على خير، ويتخلص من

هذا الضيف الثقيل غير المرغوب فيه. سوف أرى أجرب فلن أخسر مع هذا القط شيئا.

شرع نمرود في شرح عملية اقتحام القصر المفترضة، لتخليص السبية صوفونيسبا، وكان كل حديثه ينصب على قوته الجسمانية فقط، ولم يستعمل عقله قط للوصول إليها، فسأله يفاو: ماذا لو اصطدمت بمجموعة من الجند الرومان؟. قال: إني كفيل بالقضاء عليهم، وأتعهد لك بقدرتي على ذلك.

-لا أعتقد يا صديقي نمرود، إنه لا يمكنك مواجهة ثلة من الرومان دفعة واحدة.

أخذ نمرود ينظر حواليه ثم قال بفرح: هل ترى ذلك البغل الكبير هناك، أجاب: نعم أراه وما علاقته بحديثنا، هل ستهاجم الرومان من على ظهر بغل؟

قال ساخرا: بإمكاني القضاء عليه بضربة واحدة، هل تراهنني على ذلك.

- نعم أراهنك، ولكن دعنا في صلب حديثنا.

- قلت لك إنه بإمكاني مواجهة ثلة من الرومان فشككت في قدرتي.

- اه فهمتك، سوف تطيح بهم بضربة واحدة كما ستقتل البغل بضربة واحدة.

- أجل ذلك ما عنيته، فهل تراهن؟.

توقفت العربة، ونزلا معا واقترب من البغل المسكين، وقبل أن يفتح يفاو فمه، قام نمرود بضرب البغل على أم رأسه بقبضة يده فخر البغل صريعا يتخبط.

فوجئ يفاو بهذا المنظر، فليس معهودا أن ترى رجلا يقتل بغلا بهذا الحجم الضخم، فهو يعادل حصانين من حصانه زرزر.

عادا معا إلى العربة، نمرود في حالة فرح واستبشار، ويفاو كان ساهما لم يجد ما يقول، فقال نمرود السعيد: ناولني النقود إذن.

أخرج يفاو ثلاثة شيقلات من كيس صغير كان يحمله تحت إبطه، فتأمل نمرود النقود ثم قال: شيقلات قرطاجية لا بأس بها، كم تعادل هذه من الدنانير الرومانية.

- يا لك من طماع قاتل يا نمرود، الآن عرفت سر سعيك الدائم وراء الملك ماسينيسا.

استمرت العربة في السير بسرعة كبيرة، فيما ساد الصمت بين الرجلين، وكان نمرود يسترق النظر إلى رفيق سفره، وكان كلما نظر نحوه يرسم ابتسامة طفولية، كانت تكشف بدورها عن فم فقد معظم أسنانه بطريقة مضحكة كانت خسارة معظمها بسبب الشجار، فيجد نمرود رفيقه ساهما واجما مكتئبا، فظن أنه حزين على فقدان تلك الشيقلات، فأحس نحوه بعطف وشفقة، أما يفاو فكان يعصر دماغه وأفكاره محاولا إيجاد حجة يقتنع نمرود بها. فيوافق على أن يواصلا الطريق والمهمة معا، ثم نظر فجأة إلى نمرود وكان هذا ينظر بدوره إلى صاحبه، فوجده يبتسم بطفولة، واكتشف غياب بعض الأسنان من فمه بطريقة غريبة، فابتسم يفاو ثم ضحك، وازداد ضحكه كلما نظر إلى فم صاحبه، فيجد نصف سن، ثم سنا كاملة وآخر غائب ثم ما يشبه السن في فمه، وانتقلت عدوى الضحك إلى نمرود فأخذ يقهقه بصوت يشبه زعيق الأطفال، لقد كان صوته رقيقا ناعما بعكس شكله وضخامته، وانتهى موسم الضحك بينهما بأن أعلن نمرود بطريقة مسرحية موافقته على أن يساعده يفاو في مهمته ، ثم مد يده إلى يفاو

طالبا منه أن يأخذ نقوده، فرفض ذلك قائلا: لقد اكتسبتها عن مهارة وجدارة، وكم يسعدني لو أنك شرحت لي كيف تمكنت من قتل ذلك الحيوان المسكين.

- هل تراه حقا مسكينا؟.

لم يتوقع مثل هذا السؤال، وعليه أن يجيب بدون أخطاء وإلا ستكون نهايته، وهي نهاية لن يحسده عليها إلا ذلك البغل القتيل، فقال: أبدا إنه مجرم آثم، وأنت المسكين الطيب.

تطلع نحوه بعينين مليئتين في الريبة، فتابع يفاو: لو لم يكن بغلا حقيقيا لم يكن ليجرؤ على الوقوف في طريقك.

- ها أنت قلتها، إنه المعتدي، قال ذلك بفرح طفولي. وتابع:

- أخبرني أيها الصديق، لماذا تحمل عملة قرطاجية وليس نقودا رومانية، أرجو ألا تكون من أعوانهم؟.

اغتم يفاو من كلمات نمرود الأخيرة فقال باستنكار:

- بل قل غنمتها من تاجر قرطاجي أراد قتلي، فتمكنت منه وسلبت ماله، وعدت إلى مجموعتي سالما، كانت هذه أسلم وأفضل إجابة، يقولها لهذا الضخم الساذج.

- بوركت ذلك ما ظننته.

عادا إلى الصمت مجددا، ثم سأله بعد برهة: أخبرني كيف ستصعد إلى الأميرة السبية، هل يمكنك ذلك؟.

قال يفاو: أنا من يمكنه ذلك، أرأيت كيف تمكنت أنت من قتل ذلك البغل المجرم الذي اعترض طريقنا، بسهولة ويسر، قال: نعم، قال: وأنا يمكنني تسلق الأشجار والأسوار كالسحلية تماما، هل تعرف كيف تتسلق السحلية؟.

أخذ نمرود يحملق في صاحبه، ليكتشف أي شبه بينه وبين السحلية، فلم يجد شيئا يستحق الذكر، فاستحثه يفاو قائلا: ما رأيك، هل تراهن أنه يمكنني الصعود على هذه الشجرة بسرعة ويسر؟ وأشار إلى شجرة حور طويلة جدا.

أجاب نمرود وهو يقطب حاجبيه: لا أريد، أصدقك، من يدري كيف يمكنك التحول إلى سحلية.

واصلا سيرهما نحو ضواحي مدينة إيوباليني، ولم يعترض سبيلهما أية عقبات، فيما كان يفاو يفكر في سر صحبة هذا الضخم للملك، ليس فيه ما يغري ولا يثير

ولا يمتع، إلا إذا كان ملكنا يستمتع ببلادته وبلاهته وقتله للثيران والبغال بقبضة يده، عندما وصل إلى هذا الاستنتاج لم يجد بدا من سؤاله عن ذلك، فقال نمرود: وهل تظن أن مولاي الملك هو من اختارني؟ قال أنا من اخترت رفقته ومصاحبته ومتابعته، إنني حارسه الأمين، ولو أنه طلب مني أن....واحتار في أي مثل يختار، ثم قال: لو أنه طلب مني أن أقتلك لفعلت، ولو أنه طلب مني أن أحملك على ظهري وأقطع بك مازيليا فلن أتأخر عن ذلك.

- رائع وعظيم أنت يا صديقي، لقد سعدت بمعرفتك ومرافقتك ورهانك أيضا، والآن علينا أن نفترق ونلتقي بعدها بالقرب من القصر الروماني، على أن تكون أنت قد تكفلت بالقضاء على الحامية الرومانية.

امتطى يفاو حصانه وهو يتمتم: لو أنه تمكن من القضاء على الرومان فسوف أصنع له تمثالا، أرجو أن يثير فزعهم، وتدب الفوضى في صفوفهم، فذلك ما أحتاجه، ثم انطلق يعدو نحو الجهة الغربية من المدينة.

نهاية امرأة

في صبح اليوم الذي انطلق فيه نمرود إلى إيوبليني، أشارت صوفونيسبا إلى خادمتها جيزايل مودعة، دون أن تعرف الخادمة أنها تودعها للمرة الأخيرة. فلم يخطر ببال المرأة القرطاجية أن سيدتها السبية قد عزمت وحسمت أمرها، وقررت الانتحار، بعدما أخبروها أنهم بصدد الإعداد لنقلها إلى روما، وكانت قد طلبت منها أن تسارع في الذهاب إلى الملك ماسينيسا، فهو الوحيد الذي بإمكانه أن يخلصها من الأسر ويرد لها حريتها، ولم تكن تطلب أكثر من ذلك، وكانت ترجو أن تجد عنده استجابة، ولولا أنها تعرفه جيدا لما تجرأت على مثل هذا الطلب.

أعدت الخادمة التي كانت في الأصل من سيدات قرطاجنة، كل شيء للرحيل نحو معسكر الملك النوميدي، فجهزوا لها الخيول والطعام والعلف والماء، فلم تكن

ترغب في الاستراحة إلا لقضاء حاجتها، فالوقت يجري. والرومان بانتظار شحن سفينتهم ليشحنوهما معاً إلى روما. فانطلق نمرود ورفيقه في اتجاه، وانطلقت هي في الاتجاه المعاكس، لكن لهدف واحد، وغاية واحدة.

عندما وصل يفاو إلى القصر، وكان قد ربط حصانه بالقرب من اصطبلات الرومان، فيحسبونه من أحصنتهم، ثم تسلق شجرة بالقرب من شباكها. كانت أثناءها صوفونيسبا شاردة الذهن، غارقة في أحزانها وآلامها، فلم تشعر بما يجري حولها وتحتها. على الأقل كيف لم تنتبه لما أقدم عليه نمرود؟ .

هذا الرجل الذي لم يصدق أن تخرج كلمة موافقة من فم سيده حتى انطلق دون أن يخبره، ومن يجهل ماسينيسا يقسم أنه عندما وافق على اقتراحه كان يسعى للخلاص منه، والحقيقة غير ذلك تماماً، فقد قالها مجاملة له، ورمية سهم قد تصيب وقد تخطئ من يدري.. طالما الرجل يصنع ذلك عن طيب خاطر.

لقد أقدم نمرود على افتعال معركة عظيمة، استفاد منها يفاو لتنفيذ خطته، وقد فوجئ بنجاح العملاق في

التخلص من رومان كثر، أما السبية فلم تلتفت لشيء سوى أحزانها، ولم يكن يغريها أي شيء، لقد كانت تتألم حتى في تنفسها، ولم تعد تهتم بلباسها ولا بالطعام الذي تركوه بقربها، غير أنها وجدت راحتها وسلوتها في استعادة شريط ذكرياتها، وتعمدت أن تركز على الحلوة السعيدة منها، وكان أكثر ما تخشاه أن تستسلم لوسوسات نفسها، فتلعن زوجها المختفي ومن عرفها عليه، وهي لا تنكر أنها ما زالت تكن مودة عظيمة له، مع أنها الآن لا تعرف هل هو فوق الأرض أو في جوفها، لذا كانت سلوتها في استذكار آخر حوار بينهما، والقبلة الأخيرة والمرة الأخيرة التي نامت فيها على صدره، وكانت كلما أرادت أن تتخيله وتستعيد ملامحه، يخرج لها وجه ماسينيسا وابتسامته وضحكته، بل عندما أرادت أن تتذكر آخر مرة مارسا فيها الحب، وجدت نفسها مع ماسينيسا في جناحه الأميري في المدرسة الحربية، حيث كانت تلك آخر مرة تراه وتتحدث معه وتعانقه، ويعصرها بدوره عصرا كما كانت تحب وتشتهي.

تذكرت طعم قبلاته، ولذة شفتيه، فاستسلمت للذكريات فاغرة فمها بسعادة وهدوء، غير آبهة بتغير الشخصيات بين زوجها الأسير وحبيبها الذي تخلت عنه لحماقتها ربما، وجدت سعادة عظيمة في اللذة التي استشعرتها باكتشاف ماسينيسا في أعماقها، لقد أسعدها ما تراه في عقلها فأغمضت عينيها، خوفا من أن يفر منها.

ومالم تنساه أبدا هو ضحكاته وابتساماته، وكرمه وحبه وحديثه الدائم عن المستقبل، حيث كان يتحدث ببشر وسعادة، كان يرسم أحلاما عظيمة، وشموسا كثيرة، بينما كانت هي تضمه إليها أكثر، وتلتصق فيه بشدة، كأنها ترغب في اقتحامه والدخول فيه، كانت تشعر في قرارة نفسها أن شيئا مما يقوله ويتمناه لن يتحقق ولن يكون.

لقد ترك في قلبها فراغا يصعب ملؤه، وهي وإن تزوجت رجلا لا تكرهه وأيضا لا تحبه وتعشقه، فلم تزعم أبدا أنها المرأة السعيدة الهانئة، ولكنها كانت راضية فقط.

حل الليل سريعا، فقامت إلى قنديلها فأطفأته، مكتفية بما يصلها من ضوء القمر، وأخذت تتقلب في

فراشها، وهي تستمع إلى صوت أحشائها الفارغة، إنها مثل قرقرة الماء داخل وعاء نفذ فيه الهواء، ولكن من أين تأتيها الرغبة في الأكل، وهي في حالتها تلك أشد ما تفتقد إلى لمس جسد الحبيب الحار، وهو الكفيل بمنحها الهدوء والطمأنينة والسكينة، ولكن ماذا يمكن أن تفعل أكثر من الاستنجاد بمن تعتقد أنه مازال يحبها، وحالها اليوم مع الأحلام كما كانت تقول شقيقتها دوما وتتهمها، إنها تحلم، حقا هي اليوم تعيش مع أحلام اليقظة.

هي غارقة في أوهامها وأحلامها وذكرياتها، وكان هناك من يؤمن بالواقع ويعمل لتغييره، وأول هؤلاء الملك نفسه، الذي أرسل من يثير ضجة بشأنها، ثم إنه لما تحدث مع الأفريقاني بخصوصها وسمع تلك الإجابة الصادمة، لم يقف مكتوف اليدين بعدها، فقد جلس يدرس جميع الاحتمالات مع وزيره غيلاس، وكان هذا صاحب حكمة وحلم، ولا يتحدث إلا عندما يكون للكلمة أهميتها وضرورتها، ويندر أن تخيب توقعاته، فوقع حبه والرضى عنه في قلب الملك، ووثق به، ولم يجدوا عليه مأخذا ونقيصة سوى أنه لا يؤمن بالقوة والعنف لتحقيق المطالب

النبيلة، وهو شديد الإيمان بأن الأفكار السامية تفرض نفسها وتمتلك بذاتها قوة تحققها.

لقد آمن ماسينيسا فيما بعد بأفكار وزيره، وحاول جاهدا أن يطبقها، ولكن الوزير كان قد اختفى وقتها، وقيل إن الرومان خطفوه لكي يدلهم على مكان خزائن الذهب التي غنمها ماسينيسا من تجار قرطاج.

لقد تأثر كثيرا بوزيره، وتأكد له صحة أقواله، وكان الوزير ممن يؤمنون بالتسامح الديني، فاقتنع مليكه بموقفه من جميع الأديان الأخرى، فأصدر الملك قرارات يمنع فيها التعدي على أي شخص بسبب دينه، ويعاقب كل من يضطهد أحدا بسبب عقيدته في مملكة نوميديا الماسينيسية.

كانت الجملة الوحيدة التي قالها الوزير الحكيم تلك الليلة: يجب علينا يا مولاي ألا نربط مصالحنا الذاتية بتحالفاتنا الواسعة، ونرهن صدقيتنا مع حلفائنا بمواقف خاصة لا أراها مجدية.

أما الملك فكان ينظر للمسألة من زاوية أخرى، فقال: تريد أن تقول إن مصلحة نوميديا لا علاقة لها بما

نحب ونتمنى، ولكن قضية صوفونيسب خارج ذلك.
إنها تخصنا وحدنا.

هز الوزير رأسه موافقا، وقال: أجل يا مولاي، ولكن هل تأمرني باستخدام وسائلي الخاصة مع الرومان في سبيل استعادتها وتسليمها لنا؟.

- بالضبط ذلك ما أردته، ولو تركنا الأمر للرومان ليصنعوا ما يشاؤون، فساعتها سوف نخسر نوميديا ونخسر معها جميع أمنياتنا، يجب على حلفائنا أن يعرفوا أن لهم حدودا، وهي تنتهي حيث يزول خطر قرطاج، وحيث تبدأ مصلحة نوميديا الكبرى التي طالما تاقت نفسي لتأسيسها، أم تراك تعتقد أن الإغريق والمصريين وغيرهم من الأمم يمتلكون حقوقا هي محرمة علينا.

تناول ماسينيسا كأسا نحاسية فقال وهو ينظر فيها قبل أن يشرب بعض ما بداخلها: نحن أبناء هذه الأرض، وهذه الأرض نحن بُناتها وزرّاعها، تلك هي المعادلة التي يجب أن يفهمها الجميع بمن فيهم الرومان.

قام ماسينيسا عن كرسيه، وكان يلبس ثوبا قطنيا أرجواني اللون، فعلق ثوبه بيد الكرسي، فوجه شتيمة

كبيرة إلى قرطاج والرومان معا، ما تسبب في دهشة ارتسمت على وجه الوزير الذي لم يعد يفهم حقيقة تفكير مليكه، وقال: إنه تحد كبير هذا يا مولاي، قال ذلك وهو يرفع رأسه إلى السماء كمن يتخيل أو يتنبأ أحداث المستقبل، وتابع، أبارك لكم تفكيركم وعملكم هذا، وأعتقد أن جميع أبنائنا يباركون ذلك.

- كم بت أكره أن يقال هذا مازيلي وذاك مازيسيلي، والآخر موريتاني، فلتقم مملكة واحدة كما يصنع جميع العقلاء، إن بلادنا لنا وحدنا، ولن أسمح لأي كان بمشاركتنا فيها.

انتهى الاجتماع بأن تكفل الوزير باعتماد طرقه السياسية الحكيمة، لاستعادة الأميرة السبية، على أن يصنع ذلك بأسرع ما يمكن.

في الأثناء، كانت مجموعة الثلاثة بدورها من الذين تكفلوا وبادروا لنصرة مليكهم في جميع أمنياته ورغباته وحاجاته، ولم يستشيروه في مبادرتهم الجريئة التي دفعت الفارس يفاو إلى تسلق أشجار القصر حتى وصل إلى حافة نافذة غرفة صوفو، ولحسن الحظ كان الشباك

الخشبي مفتوح، فقفز إلى الداخل بمهارة القط، وسقط بالقرب من سرير صوفو، فأطبق بيده على فمها الذي خرجت منه آهة خافتة، وقال بهمس: لا تخشي شيئا يا سيدتي، لقد جئت لإنقاذك.

نعم لقد ضحى بنفسه من أجل هذه المهمة الخاسرة، فلم يكن هؤلاء البربر أكثر ذكاء وحنكة من روماني لا يقهر مثل سيبيون إيمليانوس كما قال ذلك بنفسه.

لقد توقع سيبيون أن تتم مثل هذه العملية، وتوقع أن يلجأ حليفه النوميدي لتخليص أسيرته التي تعلق قلبه بها، ولم تكن عند سيبيون أية رغبة حقيقية في امتلاكها، ولم يكن يسعى للاحتفاظ بها لنفسه، وإنما كان في نيته أن يرسلها إلى مجلس الشيوخ الروماني، ليمتع هؤلاء أعينهم للمرة الأخيرة في حياتهم بالجمال الفينيقي القرطاجي، وربما يقتتلون عليها فيتخلص منهم جميعا.

لقد أرادها لعبة وخديعة، بينما أرادها ماسينيسا بطريقة ودية، لا تؤثر على حلفهم وصداقتهم، أما المغامرون فأرادوها عنوة بالقوة أو المكر أو بهما معا، لذلك أوصى سيبيون ضباط القلعة والقصر، أن يكونوا

حذرين من محاولة تحرير الأسيرة، لأن ذلك كما أخبرهم سوف يكلفهم حياتهم، وأمرهم إن حاول أحدهم إنقاذها أن يبذلوا ما بوسعهم لأسره وتقديمه بين يديه، وكرر كلمته. لا تقتلوه أريده حيا أمامي فلي في ذلك حكمة.

اعتقد سيبيون أن حليفه الملك الشاب سوف يلجأ إلى القوة لتنفيذ رغبته، وهو إن فعل سوف يعطي للروماني حجة عظيمة عليه لكي يضيع عليه ما اتفقوا بشأنه، وربما يغير الرومان شروط تحالفهم معه، وسيكون ساعتها في موقف ضعيف، لا يمكنه المراوغة ولا فرض شروطه عليهم، فمن يدري قال سيبيون ذلك لمساعده غايوس لايلوس، وتابع: حليفنا العزيز ماسينيسا كان حليفا لهنيبعل ثم انقلب عليه ليتحالف معنا، فهل تظن أنه فعل ذلك حبا بنا أو حبا بنفسه؟.

- من المؤكد أنه صنع ذلك لنفسه يا سيدي.

- هل يمكنك الوثوق تماما في مثل هذا الرجل؟.

- الأمر لك، وأنتم أعلم به منا.

قام سيبيون عن كرسيه، سار قليلا في القاعة ذات الأرض الحجرية، ثم نزع سيفه ودرعه، فوضعهما على

طاولة كانت بالقرب منه، ثم تناول كأساً من نفس الطاولة. واتجه نحو مساعده، وقال: كل ما أعرفه الساعة أن نكون حذرين ومتيقظين، وآمل ألا يخيب ظني بالملك البربري. جلس على كرسيه، مسمراً عينيه على مساعده بانتظار سماع تعليقه.

قال هذا: إذن سوف تختبرونه بقضية الأسيرة القرطاجية.

- أحسنت ذلك ما أردته، فلو أنه باع قلبه وتخلى عنه، فسوف أعتبره أحد رموز روما، وسوف أطالب بإقامة تمثال له على باب مجلس الشيوخ.. لن نجد حليفاً بعدها أكثر إخلاصاً منه.

حدث ذلك، فيما كان الوزير الحكيم غيلاس يوصي أحد أصدقائه الرومان بالتوسط لدى قائد الجيوش الرومانية لتسليمه الأسيرة القرطاجية، وكان على ثقة تامة أن سيبيون الإفريقي لن يرفض طلب هذا الصديق المشترك، لسبب وحيد أن سيبيون يعشق ابنة هذا الرجل، وهذا الروماني كان يعشق الذهب، فهو تاجر حرب اسمه

كلاوديوس المالطي، فتضافرت الأسباب والحاجات لتبين نقاء سريرة ماسينيسا تجاه الرومان.

ولحسن حظه وبشارة طالعه أن غيلاس عمل بنصيحته وعجل بإرسال الرجل، فلما تمكن نمرود من القضاء على بعض الرومان في معسكر إيوباليني، تمكّن يفاو أيضا من نيل ثقة الأميرة السبية، وأخبرها أن الملك ماسينيسا شخصيا هو من أرسلهم لتحريرها، وكان صديقاه قد لحقا به، وانضما معا إلى نمرود الذي أثار فزعا عظيما في العسكر الروماني.

ظن هؤلاء أن من يهاجمهم هو أحد عفاريت الغابات وجنيها، فمن غير المعقول أن يطيح بفارس منهم بضربة واحدة وهو على ظهر حصانه، لكنه فعلها أكثر من مرة، حتى خشي الرومان الاقتراب منه، ولم يجدوا بدا من التربص به، وتحين الفرصة لاقتناصه بحربة أو سهم مسموم قاتل.

في تلك المنطقة الغابية الكثيفة، ذات أشجار البلوط والخروب والصنوبر، وقعت معركة شرسة غير متكافئة، دفع فيها الرومان ثمنا باهظا لتنفيذ أوامر

قائدهم، بينما خسر ثلاثة رجال هم من خيرة الفرسان حياتهم من أجل امرأة فضلت السم على الأسر.

كان الضباط الرومان قد أعدوا خطة مسبقة للإيقاع بمن يحاول تخليص الأميرة، فوزعوا الجند والأعين والحراس، لكي يمسكوا بالمنقذ مهما كانت قوته وحنكته، فلما صنع نمرود بهم ما صنع، لم ينتبهوا إلى القط يفاو الذي تسلق الشجرة والحائط وكان بعدها في الغرفة، ولولا مقدم صديقيه الآخرين لنجحت الخطة التي وضعوها، لكن وجود فارس نوميدي وسط الجنود الرومان أثار حفيظتهم، وتأكد لهم أن في الأمر خديعة.

وصل أوسمان، ثم تبعه أزرو وقد تخفيا بزي الحطابين، فأثار وجودهما ارتياب ضابط روماني، فمن هذا الحطاب الذي يختار هذا المكان للقيام بعمله، إما أنهما جاسوسان للقرطاجيين، أو لهما علاقة بالأميرة الأسيرة، فأرسل من يقتفي أثرهما، ويراقب تحركاتهما، فما أن وصلا إلى القصر حتى وجدا ثلة من الضباط الرومان بانتظارهما، وكان هؤلاء يهمون بمحاصرة التابع نمرود الذي تحصن في مكان آمن.

شاهد يفاو الذي كان في غرفة الأميرة مقتل صاحبيه، ولولا صوفونيسبا التي أمسكت به ومنعته من النزول، لكان هو الآخر صريعا مع صاحبيه، فأخذ يراقبهما وهما يصارعان الجنود الرومان بشراسة عظيمة، وكم كان حزنه كبيرا لأن الأمور وصلت إلى هذه النهاية المأساوية، فقد أعدوا خطة ناجحة، ولكن كتب لها أن تفشل، وأما العملاق نمرود، فلما رأى ما يجري، انضم إلى أصحابه وقاتل هو الآخر بضراوة بالغة، كأنه دب متوحش هائج، فلم يتمكنوا منه إلا بعد أن أثخنوه جراحا، وكانوا كلما أرادوا أسره هاجمهم بشراسة وكأنه يستعيد قوته من جديد، فقذفه أحدهم بحربة وقعت في قلبه فخر صريعا فوق صاحبيه مضرجا بدمه.

كانت صوفونيسبا تراقب ما يحدث لأجلها وبسببها، فهتفت: ويلي ما الذي جنيته وحصدته، كانت جزعة مضطربة مخطوفة ومأخوذة، وقد كانت أغنى الناس عن هذا المصير وتلك الحال، ولكنها التضحية التي يدخل الناس من أجلها التاريخ، فيمضون هم وتبقى ذكراهم خالدة خلود البشر أنفسهم، فلما تيقنت

من استحالة خروجهم رفقة يفاو طلبت منه أن يمتطي جواده ويذهب إلى الملك ماسينيسا، ويرجوه أن يرسل لها سما اختارته، وكتبت إليه رسالة على قطعة من القماش بلغة قومها، راجية أن يسلمها للملك.

كان يفاو يسابق الريح وهو على ظهر زرزر، فلا وقت لديه كي يضيعه، فوصل في زمن قياسي إلى معسكر قومه في موسوني، فقد قطع أكثر من ثلاثين فرسخا دون توقف، نحو تسعين كيلومترا، دخل خيمة الملك، وكان ماسينيسا يتدارس أمرا مع مجموعة من الضباط، ولم يقدر يفاو على فتح فمه والحديث. كان فمه جافا وأعصابه مضطربة جدا، ولم يقو على الوقوف فخر مغشيا عليه، لم يكن تعبا ولا خائفا وإنما هو التوتر والقلق، فأسرعوا إلى الطبيب الذي أعاد إليه وعيه وأعطاه الماء المعسل، فأشار يفاو إلى جيبه، فأخرجوا الرسالة الكتانية التي كانت معه، عرف منها ماسينيسا أن المرأة في خطر، وقد كتبت له: لن أعتذر ولن أقدم القرابين بين يديك، بل لن أتحدث عن ماض لا أكاد أصدق أحداثه، مهما كان ومهما حصل، ومهما اعتقدت بي فأنت محق تماما، وأنا صوفي أحبك

وأعشقك، كنت ومازلت وسأذهب إلى العالم الآخر وأنا أحبك... أرجوك دعني أرحل بسلام.

قرأها ثم قرأها وهو يبكي من الداخل، ولم يخرجه من بكائيته الداخلية سوى صوت يفاو الذي أخبر ملكه بما حدث، وبما طلبته القرطاجية، كما أطلعه على أنها أرسلت وصيفتها جيزايل إليه، ولكن الوقت قد فات، لم يجد ماسينيسا الملك الكلمات المناسبة لكي يعلق على ما حدث، فاكتفى بأن أرسل إليها ما طلبته، وأجّل بقية الحديث إلى موعد آخر، لقد كادت الصدمة أن تحطمه، وكانت قناعته أن ما لم يحطمك ويقضي عليك، فإنه يزيدك صلابة وقوة وبأسا، وذلك كان حاله، فقد عركته الحياة ولاكته، فعركها وعصرها عصرا، وكان بعد صوفونيسبا كلما سنحت فرصة أن يلتقي بالقائد سيبيون إيمليانوس، كان هذا يتحاشى النظر في عيني صاحبه، ربما كما قال ماسينيسا، كان يشعر بالذنب لأنه رفض لي طلبا عزيزا ذات يوم.

وقد حدث أن طلب سيبيون من ماسينيسا شيئا شخصيا كان بينهما، فلم يبخل الملك على صاحبه

الروماني، فقد أعطاه أغلى وأثمن حصانين يمتلكهما وكان يفتخر أنها بحوزته، وعندما طلب منه سيبيون أن يقدر له ثمنهما، قال: هل ترى أن للأخوة ثمنا أيها الصديق الطيب، الشكر كل الشكر لبعل آمون الذي جعل العبد الضعيف ماسينيسا يهدي لصديقه الطيب إيمليانوس كورنيليوس أشياء لا تقدر بقيمة.

وهكذا انتحرت صوفونيسبا الحسناء المشاغبة، فقد شربت كأس السم عن آخره، وكانت تلك مفاجأة عظيمة لقائد الجيوش الرومانية الذي لم يجد ما يقول، فأخذ يتساءل: كيف ماتت ولماذا؟. ومن أولئك الرجال الذين هاجموا القصر؟. هل هم من أصحاب ماسينيسا أو من اصدقاء زوجها الأسير صيفاقس؟ تلك أسئلة احتار أمامها الرومان، ولم يجدوا إجابة لها، وسرعان ما تناسوها فلم تكن تعني لهم شيئا كثيرا.

غير أن سيبيون كان قلقا مرتابا، فلو أنه أعطاها لماسينيسا ونزل عند طلبه ورغبته، لكان خيرا له وأقوم، على الأقل كان سيظل يحدثه عنها ما حيي، ثم وصله تاجر الحرب ابن جلدته يسعى، في حين كانت معركة

هي الأغرب والأشرس من نوعها تقع هناك بعيدا عن معسكره، وهو الذي حزم أمره واتجه نحو قرطاج، فأي أحاج هذه التي تحدث؟.

احتار سيبيون في أمره، هل هي مهمة إلى هذه الدرجة؟. ليتني أعطيتها للملك البربري فأرحت واسترحت، يا لي من متعجل عنيد..قالها لنفسه ساعة جاءه خبر موتها.

عشق جديد

كان عميل العقلاء قد أتم خطة اغتيال الملك، وكان هذا يتلقى تعليماته بواسطة أحد حراس الأبراج، وقد أحضر معه صبية حسناء تجيد صنع الخمور وتقديمها، كما أتقنت الرقص الإغريقي الذي يعشقه الملك، لقد كان مفتونا بكل شيء إغريقي، حتى لغة اليونان فتنته وأثارت إعجابه، لكنه عندما اتخذ لغة لمملكته وحرفا لكتابتها، لم يجد غنى عن قرطاج.

سأله وزيره غيلاس: يمكننا اعتماد لهجتنا الشرقية، ثم تأمرون بكتابتها بالحرف الروماني أو اليوناني، وترسلون من يعلمها لجميع رعايا مملكتكم.

قال وهو يضع التاج عن رأسه، وكان أشبه بتيجان الإغريق، بئس ما اقترحت علي يا غيلاس، عدل ثوبه ومد ساقيه، ثم تابع وسط دهشة الوزير: لا بأس من لهجتنا الحبيبة، أما أن نكتبها بحروف الغرباء فهذا ما لا

أطيق التفكير به، ثم كيف نكتب حرف الغين والقف وهم لا ينطقون مثل هذه الحروف؟.

- إني آمركم جميعا أن تبحثوا عن حل آخر..بهذا حسم ماسينيسا النقاش.

كان أكنار يتنقل بين قاعة الملك والمطبخ والردهة. مجدا نشيطا كأفضل ما يكون الخادم والفارس والحارس الأمين، ولم يغب هذا بدوره عن عين ماسينيسا، فلما سأل عنه، أخبروه أنهم يثقون فيه تماما، وخاصة أنه تكفل بحماية ثروة العائلة وميراثها.

- عن أي ثروة وأي ميراث تتحدثون؟ سأل ماسينيسا وقد اتسعت عيناه. قالت الملكة الأم: أقصد ذلك الصندوق الذي نحتفظ فيه بوثيقة الملك والمنديل، وبقية المجوهرات والأختام الملكية.

- آه نعم نعم، وهل مازال منديل القسم على حاله، أريد أن أطمئن عليه؟.

احمر وجه الملكة، ثم قامت من مجلسها وهمست لابنها الملك: ليس الآن، سوف أخبرك بكل شيء.

سأل الملك مجددا، وما هو شأن تمثالكم هذا بميراثنا، أقصد هذا الأكنار، أي التمثال، من أعطاه الحق بذلك، وكيف علم بأمورنا هذه.

صمت قليلا بانتظار إجابة أهل المجلس من أعضاء عائلته، لم يجرؤ أحدهم على الكلام، فقال ماسينيسا: دعوه لي سوف أنظر في أمره.

تمكن الضابط مازيتول القريب من العائلة الملكية من سرقة ما اعتقد أنه الصندوق الملكي، الذي يحتوي الوثيقة والمنديل، وقد تعمدت الملكة تيفاني أن تشيع في القصر بأن الصندوق قد سرق، لتضمن سلامة ما تبقى عندها من إرث.

وعندما اختلت الملكة بولدها أرادت أن تخبره عن ذلك، وكانت محرجة أشد الحرج، فأخرج ماسينيسا المنديل من جيب في صدره وقدمه باحترام إلى أمه وهو يبتسم، ثم قال: كنت أعرف أنهم سيفعلون ذلك وأكثر، لقد خبرتهم يا أمي.

- لكن متى أخذته وكيف؟. قالت ذلك بدهشة بالغة.

- اتركي هذه الأسئلة لي، والآن أخبريني ما هو رأيك بضيفتك الوردية ساليس؟.

- إياك أن تفكر في الاقتراب منها، إنها أمانة والدتها، وهي قريبتنا أيضا، لقد أوصتني أمها وشددت علي ان أرعاها وأصونها..قالت ذلك محذرة منذرة، وهي في اتم حالات الجد.

- وضع يده على كتف أمه وقبلها من رأسها، ثم قال: وهل سأفترسها يا أمي، لقد فتنتني وأثارت مكامن العشق بي. ابتسمت الملكة لهذه البشارة، وقالت: ذلك ما أرغب في سماعه.

- إذن حضري لنا سهرة جماعية أعلن فيها على الملأ خبرا سعيدا.

وانشغل الجميع بعدها في الإعداد لتلك السهرة وذلك الحفل.

لم يكفوا عن السؤال والحديث، حول أهمية السهرة والخبر المفاجأة الذي سيعلنه الملك، مع أن جميع بنات الأعيان والشيوخ وكبار القوم، كانوا يتوقعون مسألة

زواج الملك، ولكن من تكون العروس التي ستحظى بلقب الملكة زوجة الملك ماسينيسا؟.

استدعى ماسينيسا ضيفة أمه وقريبتها إلى غرفته، وتعمد أن يبقي الباب مفتوحا، فدخلت محيية بخجل، فوجدته يلبس ثيابه، فقال مرحبا: أهلا بضيفتنا وقريبتنا العزيزة، أخبروني أن لك ذوقا رفيعا في اختيار الثياب والألوان فأردت أن أستفيد من خبرتك ومهارتك.

انحنت بأدب وقالت: رهن إشارتك يا مولاي.

- هل لي بطلب؟. قالت: نعم بأمرك مولاي، قال: إذن دعي طقوس الحكم للحكم وتحدثي معي كقريبة وصديقة. أدهشها لطفه وبساطته، فقالت: يشرفني ويسعدني ذلك يا مولاي.

- هوه ألم نتفق على وضع الطقوس جانبا.

صمت قليلا وهو يراقبها خلسة، ثم قال بهدوء: ربما جذورك ساليس هي التي تدفعك إلينا، ذلك أن دمنا له خاصية لا يمكن تجاهلها.

نظرت إليه وقد أدهشتها تلك البحة العاطفية المثيرة في صوته، وتابع يقول: وهاأنت تتدربين على اللغة

للتحدث مع الضيوف الرومان، وأنا كل رغبتي أن تتحدثي بها معي وفي هذه الغرفة تحديدا.

ابتسمت بخبث وقالت: فقط هنا.

- لقد سمعت ما أمرتك به.

يا لي من بائسة همست لنفسها، لقد تعبت كثيرا للوصول إلى ما أنا فيه، ولا أرغب أبدا في لعب دور العشيقة التي تجلب اللذة فقط.

قالت بصوت مرتفع: وبعد ذلك يا مولاي؟.

أجاب ببرود حسبته غير مبال بها: وبعد ذلك سنرى ما يكون، هل أنت مستعجلة لتحقيق كل شيء دفعة واحدة؟.

نهضت عن السرير، وقد استبدت بها الحيرة وسألته:

هل توافقني يا مولاي على تسرعي وتعذر لي تطفلي؟.

- لك ما تشائين، فأنت تعلمين أنك سكنت قلبي، وها أنت تحاولين الاستيلاء على عقلي.

- أنا يا مولاي، قالتها بغنج ودلال.

لو لم يكن متعجلا، لحققت مرادها ولخرجت معه وبرفقته ويدها بيده على تلك الجموع المنتظرة في القاعة

الملكية الكبيرة، ولكن كما اعتقدت في نفسها، إنه لايبدو مفتونا بها، وهذا ما تدل عليه ثيابه، فهو بهذا اللباس يبدو أنيقاً جدا يحسده عليه معظم الرجال، وهذا يجعله محط طمع جميع نساء المملكة من بنات الأعيان وغيرهم.

وفجأة خطر على بالها أن يكون ما تعتقده مجرد سراب، وأنها تبني قصورا على الرمال، سرعان ما سيأخذها الموج معه.

والآن أجاب وقد ضاقت عيناه: إنه وقت الطعام والمرح ومقابلة الناس، ولمعت عيناه اللتان كانتا تراقبان ملامحها وكل حركة تقوم بها بكل دقة، بينما كان يتابع قائلاً: إنه يهمني أن أرى جميع أعيان مملكتي وأجتمع بهم.

تصاعدت خفقات قلبها، لقد تضمنت لهجته هذه التي تنضح بالألغاز معان كثيرة، سألته بصوت متحشرج وقد اتسعت عيناها من التوتر والقلق: هل أخرج معك يا مولاي؟.

أجاب بصوت هادئ: كما تشائين، فأنت من أهل القصر وأصحابه، لا أعتقد أنك ترين نفسك غريبة، لقد كان يعذبها بكلماته، وربما استطاب هذا الأسلوب في

التعامل مع النساء، إنه يتركهن يغلين ويرتعشن من التوتر والشوق، ثم يهاجم أو ينسحب وذلك حسب رغبته ساعتها.

شهقت وهي تسأله: هل تعني يا مولاي أني من بنات القصر؟. أجاب وهو يعطيها ظهره ويعدل من ثيابه: بل من نسائه... صمت قليلا وكان يصفر ثم أخذ يدندن بأغنية يحبها، تتحدث عن صبية اسمها غزالة، وهي كالغزالة، عشقت صيادها، وعندما أراد أن يصطادها فرت منه.

توقف عن الغناء، ثم سألها فجأة: لقد أخبرتني الملكة أمي أنك ولدت هنا، أليس هذا صحيحا؟.

قالت: ولدت هنا.. لم يخطر ببالي أن أسأل عن ذلك، وطالما قالت الملكة ذلك فلا شك أني ولدت هنا.

لا عجب إذن أن تشعر بالرغبة في التطفل لمعرفة كل شيء، إنها ذكريات الطفولة التي تستحثها على أن تفتش وتكتشف، تجاهلت كلمات أغنيته الساحرة، التي تعني أنه لا يؤمن بالعشق الحقيقي، وأخذت تفكر، مادامت الملكة قد قالت ذلك، فهذا يعني أنها أقامت في القصر.

فسألته: هل تتذكرني يا مولاي عندما كنت طفلة صغيرة؟.

- ربما..لا أعتقد، ثم استطرد، أو بالأحرى لا أذكر تلك السنوات إنها من الأيام الخوالي التي فقدتها من ذاكرتي، لقد كان القصر حينها يعج بأشخاص كثيرين.

- ولكن هل كان الأطفال كثرة أيضا؟.

إنها من بونة، ولا تتذكر إلا تلك المدينة ببحرها الهادئ الرائع، وهي تعلم أن بونة كانت تحت حكم قرطاجنة في الوقت الذي ولدت فيه، ولابد أن أمها كانت هنا يومها، ولكن أية علاقة بين ولادتها وبينه؟.

رفعت نظرها إليه، تبحث في ملامحه عن جواب هذه العلاقة الغامضة.

لمعت عيناه العسليتان وهو يجيب: ذلك يعني أنك لي منذ ذلك الوقت، فقد أخبرتني عرافة أمي أن جميع نسوة القصر ملكي.

فاجأها كلامه الغريب، فتابع قائلا: ذلك عندما كنت صبيا صغيرا.

لقد سبب لها كثيرا من التوتر والاضطراب، فتقدم نحوها وضمها إلى صدره، ثم أخذ يمسد شعرها بحنان وإلفة، وقرب أنفه من رأسها، وتشمم شعرها المعطر ثم قال: إنك مثل جنيات الليل الفاتنات، لقد منحك ضوء القمر جاذبية وغموضا مذهلا.

لم يتسنى له رؤية حمرة خديها، لكنها كانت تتمنى في تلك اللحظة أن يعصرها قبلا.

لقد بدأ يشعر برغبة هائلة في هذه الصبية الفاتنة، التي يصعب وجود مثلها.

سألته بمودة بالغة: حقاً يا مولاي؟ لقد ظننت أني لا أعني لك شيئا سوى هذه القرابة البعيدة، فهل تراني فاتنة لهذه الدرجة يا مولاي.

-تعرفين أني لا أجيد النفاق، ولا أحب المراء والمهالأة، وإن كنت تجهلين ذلك فهاقد أخبرتك.

-لم أقصد مولاي، قالت معتذرة متلعثمة، وإنما فوجئت بكرمك وعطفك علي أنا الفتاة البائسة.

أطلق ضحكة مجلجلة، ثم احتضنها بقوة، وقال وهو يهمس في أذنها اليسرى: إن كانت الفاتنة ساليس بائسة فماذا تقول الفتيات الأخريات؟ يا لك من مخادعة جميلة.

- ازداد غنجها وهي تقول: جاريتك يا مولاي.

ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة لردة الفعل التي ظهرت عليها، وهو يتابع قائلاً: إن ما أريد قوله هو أن شعرك هو أجمل شعر رأيته في حياتي، كما أن ملامحك في غاية الشفافية وكذلك عيناك..

كانت تقول في نفسها: طالما تراني كذلك فماذا تنتظر إذن، قد يرغب بعض الرجال في امرأة تلقي نفسها عليهم راجية أن يطفئوا عطشها، أو هم يتحدثون فقط، ولا يمتلكون القدرة على الفعل.

والتقت عيناها بعينيه، لحظة قرأت فيهما الحقيقة، فهذا لم يكن غزلاً عارضاً وإنما هو فعلاً يراها جذابة، لقد رأت العشق والهيام في عينيه، إنه يريدها فوق ما تظن، هكذا تقول عيناه.

أما هو فقد شعر أنه تمادى في التغزل بها، وتلك لم تكن من عاداته، خاصة أنه يستطيع أن يقول بملء فيه،

لقد شبعت من النساء، وذلك من كثرة الخليلات والصاحبات اللواتي عرفهن، لكنه اليوم يكتشف أنه مازال للحب مذاقات أخرى لم يعرفها، وهاهو يغرق في العشق.

لم يتمالك نفسه، عن النظر إلى شفتيها نصف المنفرجتين، فضمها إليه، وأطبق بشفتيه على شفتيها، ولم يكن يقبلها وإنما كان يمتصها مصا، هكذا شعرت، وهو ما كان يصنعه حقا.

قال بعد أن كاد ينتهي من خمرة شفتيها: لقد طال حديثنا يا فاتنتي، فلنخرج إلى ضيوفنا.

كانت تفضل أن ينهي ما بدأه، فرفعت رأسها إليه، فتماوج شعرها الكثيف حول كتفيها، وقالت: أرجو أن يطول لقاؤنا دوما يا مولاي.

أجاب بلهجة الواثق من نفسه والعارف لما يريد: سيكون ذلك يوما ساليس، وإني أعترف لك بأنني شعرت بالراحة عندما رأيتك تفسرين اهتمامي بك بمثل هذه الرقة، فقد وفرت علي كثيرا من الوقت والجهد، على الأقل أنت امرأة تعرف ما تريد ولا تخجل من البوح بإرادتها.

مؤامرة

كان أكنار قد أوصى صاحبته بصنعة أفضل الخمور وألذها للملك، حتى إذا اعتاد عليها قاموا بتسميمه والتخلص منه، ولما دخل غرفة صاحبته، وجدها مستلقية على سريرها وهي نصف عارية، فسألها هل أتممت ما اتفقنا عليه؟.

كرهت الخادمة واسمها أنيا دخوله عليها بهذه الطريقة، فقامت عن سريرها، وقالت: لقد تحدثنا مرة، فهل تحسبني غبية أحتاج لتكرار الدرس أكثر من مرة، ثم أعطته ظهرها واستلقت على السرير، لم يرق له تصرفها هذا، فهو يعتبر نفسه معلمها وقائدها، فجذبها من كتفها وحذرها أن تعود لمثل هذا السلوك، فقالت غاضبة: يالك من مغرور، ولم تستطع مقاومة نظراته، وقالت بحدة: ليس ثمة ما يحتاج إلى كل هذا الغضب، فإن إشاراتك كانت من القوة بحيث يدهشني أن لم يرها

أحد، فإذا كنت تسعى إلى التسلية في هذا المساء، فأخبرني دون مداورة.

قال بلطف متجاهلاً تعنيفها: لا أريد ذلك، فأنت واعية تماماً لما بيننا. ردت بحدة: نعم، إن ما بيننا مسافة قصيرة وأنا أنوي أن أجعلها عدة فراسخ لقد سئمت اللعب والتخفي.

فقال آمراً وعيناه في عينيها: بل ابقي مكانك، ودعيني أشرح لك المخطط الذي وضعته لأجلك، صمت ثم تابع، أقصد لأجلنا معا.

تمتمت قائلة: اشرح ذلك للحارس، أو للخادمات الحسناوات البدينات، فأنت مولع بالدهن والشحم، أو لصوت ذلك البوم وليس لي.

وابتعدت عنه بازدراء، ثم هبت واقفة، وقد تملكها الضيق، وهي تشعر أن عليها أن تنهي بسرعة ما جاءت من أجله، فقد باتت تمقت هذا المكان وأهله، وأخذت توسع خطاها عنه، عابسة الوجه، لقد كانت تحبه وتغار عليه، وهو يعرف ذلك، وإلا كيف يفسر تصرفاتها النسائية العدوانية هذه؟.

كان يضحك من انفعالها وعدم ثقتها فيه، وهو الذي تجشم كل هذا العناء والخطر، ليس حبا ورغبة فيها على أية حال، وإنما إرضاء لجماعته من "التامغارتيين المناديين" الذين يعتقدون أنهم يؤسسون للطريق القويم والرؤية الواضحة.

فرت من وجهه وهي توسع الخطى، فتركها وشأنها، وكانت تعلم أنه يراقبها، وتجمد ظهرها تحت وطأة نظراته، وتعثرت خطواتها فكزت على أسنانها، وهي تتابع طريقها بسرعة إلى أن تقطعت أنفاسها وأوشكت على الإغماء، فقد بدأت تتصبب عرقا في هذه الليلة الصيفية، يا لهذا الرجل الذي يعذبني لأنني أحببته.

- لو لم يكن واثقا من حبي، لما فعل بي ما يصنع، كنت غبية عندما صارحته.. همست لنفسها، ليس أغبى من امرأة تبوح لرجل لا يحبها عن عشقها له، سوف يستغلها ولن يرحمها أبدا.

سار نحوها متمهلا، ولما أصبح إلى جانبها تحت ياسمينة عظيمة، عطرت رائحتها المكان، أمسكها من

كتفيها وقال: لا تكوني غبية، قد أكون سيئا حيال النساء فلا أقاوم إغراءهن أحيانا، ولكنني أحبك.

قالت بقهر: لا يمكن أن تكون من آل أمساكول.

فقال ببطء: ولكنني كذلك رغم أنني أتمنى لو لم أكن، إنه إرث ليتني لم أرثه، إن الجميع يعرفوني باسم أكنار بيكاو ولست أدري كيف اختاروا لي هذا الاسم وتلك الصفة، وهنا أنا من آل أمساكول، وعلي أن أحافظ على تقاليد العقلاء وأنفذ أوامرهم مثلك تماما.

ثم نظرت في عينيه العسليتين، وقالت بصوت ضعيف: إن ذهني مشوش.

ولم تعرف كم بقيا واقفين بهذا الشكل وأعينهما متشابكة كان افتتانها به كاملاً سواء كان عاشقاً أو كاذباً، مخادعاً قاسياً منتقماً أم لا، لقد وقعت في غرامه وانتهى الأمر ولم يعد بإمكانها أن تغير قدرها.

التصق بها وهو يريد ضمها من الخلف، وقد رفع يداه إلى صدرها، لقد أثارته، فانكمشت مبتعدة عنه وهي تقول: كلا لا تلمسني ولكنه اقترب وضمها إليه،

لحظة تصلب ورفع رأسه، ثم قال: إنني أسمع صوت اقتراب أحدهم، يجب أن أذهب سنتحدث فيما بعد.

رحل بسرعة وخفة، واستندت هي إلى الجدار محاولة استجماع أفكارها وشعرت بأنها ستجن هي أيضاً، وهذا ما أدخل الخوف إلى نفسها.

وقبل أن تخرج، وقفت تفكر إن بإمكانها أن تحوله عن نواياه، فإن ذلك أفضل وأخف وطأة من القتل، ولكن ليحصل ذلك عليها أن تبذل كثيرا من الجهد، ما لها وللقتل وللملك، كم أنا بائسة مسكينة، هم يعيشون ويتمتعون ونحن الشباب علينا أن نقتل من أجلهم، ولم تكن متأكدة من أنها ستجرؤ على ذلك، هل يمكنني القتل، لقد شعرت بغريزتها الأنثوية أن أي ضعف سيجر معه كثيرا من الألم والويلات، وسوف تندم ساعتها على تصرفها الأحمق.

لم يغب هذا المشهد برمته عن أعين ماسينيسا التي يبثها في القصر، لقد كان الشجر يتواطأ معه ويخبره بما يحدث، حتى النسيم كان يهب مسرعا نحوه فيطلعه على ما يجري، لقد تمكن الوسواس منه، فلم يكن يثق إلا

بمن يأكلون معه على طاولته، ويشربون معه من إبريق واحد، وغير ذلك لم يكن يثق إلا بجنده وفرسانه، وخاصة بعد الاختفاء الغامض لوزيره الذي كان يحب، فقد تركت غيبته علامات شك عظيمة في نفسه، وشعر أن الخطر يحيط به من كل جانب، وهكذا ألقي القبض على أكنار وصاحبته أنيا، ولولا يقظة ماسينيسا وفطنته لحققت الجماعة أهدافها، لكن الحروب التي خاضها، والمعارك التي شهدها، علمته أن يرى بعينين اثنتين من جميع الجهات، فكان كالذبابة في رؤيته ومراوغته.

نهاية ملكية

ظل الرجل إلى آخر يوم في حياته عاشقا للسلطة والنساء، وكان يقول دوما: لم أندم على شيء في حياتي كندمي على ذلك الحب.

وعندما يسألونه أي حب تقصد يا مولاي؟ من التي أحببتها يا جدي؟ أي عشق هو يا أبي؟ كان يصمت ويسرح بنظره بعيدا فوق رؤوس سائليه، ولم يكن صمته خوفا أو خجلا من الإجابة، وإنما لمعرفته اليقينية أن ذلك الحب جعله يرتكب حماقات لم يكن ليفعلها لو كان في صحوه. إذن فقد كان منفعلا وهو تحت ضغط نفسي وعاطفي عميق، ولم يكن في وعيه كما أحب أن يقول.

بعد أن يسعل قليلا كان يقول، وهو يمسح فمه بمنديل حريري أخضر موشى بباقات ورد حمراء، ولم يكن أحد من عائلته يعرف سر حرصه على هذا المنديل الذي لم يكن يفارقه: على الأقل خسرنا أشياء وربحنا في المقابل

أشياء كثيرة، لقد أصبح لنا امبراطوريتنا الصغيرة، وكنت آمل لو أن في العمر بقية لجعلتها تنافس ما كان من دول وما هو قائم منها.

كان يعني بقوله دولة قرطاج التي أوشكت أن تبيد، وشقيقتها روما التي لم يكن يحبها بقدر خشيته من غضب شيوخها وقناصلتها، فحافظوا على ميراث جدكم أيها الأولاد، كان يقول ذلك كأنها وصيته الأبدية، مع أنه كان أكثر من يعرف أن الرومان لن يتركوا دولته على حالها. كانوا يدخلون عليه بسرعة ويخرجون بسرعة، فقد كانوا يخشون سطوته وغضبه حتى وهو على فراش المرض، وكان يقول ضاحكا: لقد بلغت من الكبر عتيا، والجميع يهابني، يا لي من رجل محظوظ، كتب له أن يدخل التاريخ من عدة أبواب دفعة واحدة، فدخلته من أي باب؟ لست أدري، كان يجيب، ليس أنا من يقرر ذلك.

أشار بيده إلى وزيره العجوز الذي كاد ينام على كرسيه وهو بالقرب من ملكه: أكتب أيها العزيز، لقد صنعنا من أجل خير غيرنا، أشياء حسنة وأشياء سيئة،

فماذا سيقولون عنا بعدها، وهل سيحافظون على إرثنا كما فعلنا نحن وأكثر؟.

قال الوزير: ليس مثلنا إلا نحن، لكل أمة فينا أعمالها وصفاتها، وكما غيّرنا نحن سيتغيّر حال من بعدنا. أخبرني إذن، ثم انتابته نوبة سعال أخرى، ما دفع ابنه ماسيبسا للدخول كي يطمئن على والده، فسمعه يقول: وهل ستظل روما على حالها أو ستتغير، وقد نحتلها ذات يوم ونفرض عليهم أن ينحنوا إكراما لنا؟.

صمت الوزير، بينما انتابت الأمير الحيرة، فاستحثه الملك على الإجابة، فقال الوزير: إلا روما يا مولاي، إلا روما، هؤلاء أحفاد الذئبة لا أظنهم سيتغيرون.

قال ماسينيسا: أين سمعت هذا الكلام من قبل؟ متى سمعته يا ماسين.. متى سمعت هذه العبارة؟ كان يردد محاولا استحضار ذاكرته لكنها لم تسعفه، إلا بعد وقت حيث هتف قائلا: لقد سمعتها من الملكة الراحلة أمي.

سأل ماسيبسا والده طريح الفراش: هل تخشى على الدولة منا، أم تخاف علينا من الدولة؟.

لا هذه ولا تلك، فأنتم أبنائي وقد خبرتكم، لكنني أخشى عليكم من خطر آخر.

- من؟.

- وتسألني بعدها، من أبناء الذئبة يا بني.

نهر الأمير ماسيبسا ابن أخيه الصغير، وطلب منه أن يترك جده ليرتاح، فيمسك ماسينيسا بالصغير، ويقول: بل راحتي في قربه مني.

كان يقول ذلك، وهو يمسد على رأس صغيره القاعد إلى جانبه، ثم يغرس عيناه غرسا في هذا الولد الصغير: بل أخشى عليكم من الرومان، فلن يدعوكم وشأنكم أبدا.

عندما كبر الولد، أصبح اسمه يوغرطة.

وقائع التاريخ

يعد الملك ماسينيسا بحق نموذجا ومثالا لطبقة النبلاء الأمازيغ، وهو الذي عاش نحو تسعين عاما عامرة بالأحداث الجسام، 238 ق.م. - 148 ق.م، وعاش مفارقات السياسة والحرب والبناء، فكان عسكريا متقشفا جلفا في شبابه، ثم كان يأمل في أواني الذهب والفضة في شيخوخته، وكان لعشقه الصادق والمجنون أثره البالغ في مسيرة حياته كاملة، ولو قدر للشعراء أن يكتبوا قصة حبه لوجدوا فيها تراجيديا حقيقية، تفوق قصص العشق العربية بما فيها من وله وعشق وغدر ووفاء، فقد ظل عاشقا للحسناء القرطاجية حتى آخر لحظة في حياتها، رغم زواجها من عدوه صيفاقس ووقوعها أسيرة بيد الرومان الذين رفضوا تسليمها له، وكان قبل أن يقع في الحب معجبا ومغرما بقرطاجنة وأهلها، فشارك وهو ابن 17 عاما

فقط مع صدربعل جيسكو في الحرب الهسبانية، وقاتل صيفاقس الذي كان متعاطفا يومها مع الرومان.

حارب ماسينيسا في البداية كحليف لقرطاج في هسبانيا، بفرسانه من النوميديين، ثم انقلب على القرطاجيين بسبب العشق، وعرض خدماته على القائد الروماني سيبيون الإفريقي فقاتل إلى جانبه في معركة زاما، ووعده الرومان بأرض نوميديا، وتمكن بفضل حنكته ومصاهرته ومشاريعه الإصلاحية من حكم نوميديا الشرقية والغربية معا، التي كانت تتبع سابقا لصيفاقس.

لقب ماسين بماسينيسا أي كبير قومه وعظيمهم، فصار بحق ملك المازيل، ثم ملك نوميديا برمتها، عدا مناطق منعها عنه الرومان، وكان يتحين الفرصة لضمها، وقد تبنى مبدأ إفريقية للأفارقة، لكن ذلك لم يمنعه من قتال قرطاجنة والتحالف مع روما.

حكم ستين سنة بصحة جيدة وعاش عمرا مديدا اذ توفي في التسعين من العمر، وقد امتلك ماسينيسا مؤهلات حربية وخبرة كبيرة في تسيير الحروب والتخطيط لها.

وكان مؤسسا كبيرا جعل من بلاد البربر المقسمة دولة كبيرة، يسودها الأمن مزودة بجيش وأسطول ممتازين شجع الزراعة وقام بمدينة البدو وسهل الادارة المحلية في المدن وبين العشائر، كما أنشأ مجالس بلدية ديمقراطية أسوة باليونان التي أغرم بها، فشجع الفنون واستقدم العلماء والمثقفين القرطاجيين واليونانيين لإغناء لغة البربر وإيجاد خط لها.

ويعرف عن سياسة ماسينيسا أنها تعتمد في جوهرها على الحنكة والتجربة والذكاء والخبرة في التعامل الدبلوماسي مع الدول القوية كما يظهر ذلك واضحا في تحالفه مع الرومان، ولاسيما في مواجهتها للقرطاجيين، لم يكن ماسينيسا مغرما بالرومان، ولكن تحالفه معهم جاء عفويا ونتيجة غضب وحنق على صدربعل جيسكو بعد أن زوجوا خطيبته وحبيبته القرطاجية إلى الملك صيفاقس لكسب وده وتحالفه معهم، وغاب عن القرطاجيين أن ماسينيسا سينقلب عليهم ويكون سببا رئيسيا في هزيمتهم.

بعد أن أضحت قرطاجنة منهوكة ومستلبة الإرادة وضعيفة اقتصاديا وسياسيا، بوقوعها تحت قبضة الملك

ماسينيسا، ولم يكن ليخفي نيته في القضاء المبرم عليها، لكن الرومان منعوه من تنفيذ رغبته، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه، من استفاد من هذه المناوشات والمعارك الطاحنة بين جيوش ماسينيسا وقوات قرطاجنة: هل هو ماسينيسا الذي يريد أن يحافظ على وحدة الشعب الأمازيغي بمهادنة الحكومة الرومانية والاستفادة من تشجيعاتها، أم حكومة روما التي استعملت ماسينيسا أداة لمجابهة قرطاجة وإضعافها قبل أي تدخل روماني قوي؟.

من المحقق هو أن كل المبادرات كانت بيد جمهورية روما، حيث كان باستطاعة الرومان وفي أي وقت، القضاء على أي حركة يشمون فيها خطرا على مصلحتهم.

والحق إن روما كانت تخطط للسيطرة على شمال أفريقيا من خلال ضرب الأمازيغيين بالأمازيغيين، وتسليطهم على قرطاجنة، وقد مكنهم ذلك من بسط سيطرتها على ضفتي البحر.

واستمرت على تلك الخطة ما يقرب من قرنين، موسعة نطاق سيطرتها في اتجاه الغرب إلى أن قضت على الممالك كلها؛ ولم تبق بصورة شكلية، إلا على عرش

موريتانيا، فأجلست عليه الأمير الأمازيغي الشاب يوبا بن يوبا الذي كانت قد أسرته، وهو صبي بعد تخلصها من أبيه، فظل يوبا عميلا لها وسار ابنه بطليموس على نهجه، إلى أن استدرجه ابن خالته، الإمبراطور الروماني الفاسق كاليغولا إلى حضور احتفالات رسمية بمدينة ليون الغالية، حيث أمر باغتياله، سنة 40 م. وبموته انقرضت الممالك الأمازيغية القديمة.

وحد القبائل والممالك الأمازيغية، خاصة القبائل التي كانت تسكن بين منطقتي طرابلس الليبية شرقا ونهر ملوية غربا، وسعى جاهدا لكي يمكنه الرومان من حكم طرابلس والقضاء على كل نفوذ للقرطاجيين، لكنهم رفضوا طلبه هذا، ووافقوا على ضم طرابلس لمملكته في أواخر حياته، وبذلك أسس مملكته الكبيرة المستقلة عن الحكم القرطاجني وأصبح ملكا لها يحمل لقب أغليد، ومن أسباب توحيد مملكة نوميديا أن ماسينيسا كان يعتمد على أسس السياسة التقليدية كالاعتماد على المصاهرات والتعاقد مع زعماء القبائل واستغلال الشعور القومي، وإيقاظ المشاعر الدينية والاعتماد على الحروب عند الضرورة القصوى.

وأحكم تنظيم الجيش ليشتهر ببسالته وإمكانياته الحربية، والملاحظ أن الأمازيغ تحلوا بالانضباط والتمسك بالملكية، بحيث سادت في أوطانهم عبادة الملك- الإله وانتقل الحكم وراثيا في بيت ماسينيسا.

تقع عاصمته سيرتا في منطقة مسيجة بالجبال المنيعة وهي جبال الأوراس العتيدة، وقد جعل للمدينة أسوارا وحصونا، وقسم المدينة إلى أحياء سكنية وتجارية ومرافق عمومية وإدارية ودينية، وقد تأثر في بناء مدينته بالحضارة القرطاجنية والحضارة اليونانية.

كما عمل على وضع أبجدية أمازيغية ليبية محلية تسمى بكتابة تيفيناغ متأثرا في ذلك باللغة الفينيقية الكنعانية والحروف القرطاجنية.

ومن أسباب إقبال الأمازيغ على اللغة الفينيقية الكنعانية التقارب العرقي والوجداني واللغوي بين اللغتين: تيفيناغ واللغة الفينيقية الكنعانية.

ومن الناحية الاجتماعية، حفز ماسينيسا الأمازيغ البدو والرعاة على الاستقرار في المدن والضواحي والقرى لخلق اقتصاد زراعي، وما لاشك فيه أن الفضل يعود لماسينيسا في تحضر شعبه وتمدينه.

كما فرض الجبايات والضرائب على السكان، وفتح مملكته للتجار اليونانيين، وصك عملة نقدية نحاسية وبرونزية تحيل على الرغبة في الاستقلال والتعبير عن قوة مملكة نوميديا سياسيا واقتصاديا، ويشير وجه العملة إلى رأس ماسينيسا وفوقه تاج الملك والسيادة وخلفه صولجان الحكم، وأمام وجهه تتدلى سنبلة قمح.

ويحمل ظهر العملة النقدية ثلاث علامات أيقونية بصرية: حصان أمازيغي رشيق، وصولجان الحكم، وكتابة تيفيناغ.

وفيما يتعلق بالمجال العسكري، فقد كان ماسينيسا قائدا حربيا محنكا ورجلا عسكريا مدربا على أحدث الطرق الحربية المنظمة وخاصة الطريقتين، الرومانية واليونانية، وهذا ما دفعه ليعد جيشا أمازيغيا موحدا عتيدا يجمع بين المشاة والفرسان، كما كان يملك أسطولا تجاريا قويا يساهم في إثراء المبادلات التجارية بين الشعوب الأخرى، وكان يتوفر أيضا على أسطول بحري.

ازدهرت العاصمة سيرتا، وعرفت وفود عدد من الأدباء والفنانين اليونان، وجعلوا منها مدينة راقية في حياتها المادية والفكرية، وبخاصة أن الملك نفسه كان

معجبا بالحضارة اليونانية، وكان يعمل بتقاليد الملوك اليونانيين، فأكل في الآنية الفضية والذهبية، واتخذ جوقة من الموسيقيين الإغريق، ولاشك أن التجار اليونانيين كانوا يروجون بضاعتهم بفضل ولوعه بكل ماهو يوناني.

لم يحقق ماسينيسا جميع طموحاته، أي أن يوسع مملكته على حساب قرطاجنة وموريتانيا، وتوفي قبل أن تنهار قرطاجنة التي كان ينتظر الفرصة السانحة للانقضاض عليها وضمها إلى مملكته الواسعة الأطراف، فلما أحس الرومان بما كان يطمح إليه ماسينيسا وهو توسيع مملكته على حساب جيرانه الأعداء، وتقوية نفوذ سلطته شرقا وغربا، سارعت روما إلى تقسيم عرشه بين أولاده الثلاث، وهم ماسيبسا ومستنبعل وغولوسن، كما تم توزيع السلطات بين الأبناء الثلاثة بحضور سيبيون الإفريقي الذي حاصر قرطاجة، وجاء ليعلن تبعية مملكة نوميديا للعاصمة روما.

اطلبوها من الناشر















أن تقرأ التاريخ كأنك تراه وتسمعه، أفضل بكثير من قراءته السردية الجافة، أن تعيش أحداثه وحكاياته سوف تتملكك عندها المتعة وحب المعرفة، ويأخذ الفضول بتلابيب عقلك، وغير ذلك قد ينفرك ويجعل من متعة المطالعة مجرد درس تكرهه، "روايات تاريخ الجزائر" تحمل معنى رئيسيا، وهو أن تقرأ التاريخ كأنك أحد صناعه والفاعلين فيه، تطالعه رواية شيقة وليس مجرد أحداث وتواريخ تدفعك للسأم.

الناشر

الايداع القانوني 4904-2014

9 789947 870945

منشورات الانيس
تعاونية العلم رقم 17 جنان عشابو - دالي ابراهيم - الجزائر
الهاتف : 58 02 29 023 الفاكس : 57 02 29 023
النقال : 84 08 57 0661 / 48 05 54 0661
elaniseditions@hotmail.fr

توزيع : درر المعارف
0560 64 30 67